

دعوة التوحيد

أصولها - الأدوار التي مرت بها - مشاهير دعاتها .

تأليف

فضيلة الدكتور

محمد خليل هراس

« رحمه الله »

استاذ العقيدة الإسلامية بجامعة الأزهر

ورئيس قسم العقيدة الإسلامية بشعبة الدراسات العليا

بكلية الشريعة بمكة المكرمة سابقاً

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



دَعْوَةُ التَّوحِيدِ



دعوة التوحيد

أصولها - الأدوار التي مرت بها - مشاهير دعاتها .

تأليف
فضيلة الدكتور
محمد خليل هراس
« رحمه الله »

استاذ العقيدة الإسلامية بجامعة الأزهر
ورئيس قسم العقيدة الإسلامية بشعبة الدراسات العليا
بكلية الشريعة بمكة المكرمة سابقاً

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين؛ والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنفرد بالإلهية على جميع خلقه: والمختص بنعوت الكمال وصفات الجلال والجمال بلا شبيه ولا مثال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق يظهره على الدين كله وأمره أن يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله: وعلى آله وصحبه أهل العدل والتوحيد ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلعل من نافلة القول ومكرور الكلام أن يقال إن التوحيد هو أساس الإسلام: وإنه من أصوله وقواعده بمكان الذروة والسنام. فذلك أمر أطبقت عليه دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام. فما منهم أحد إلاافتتح دعوته لقومه بقوله ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ [1] فالتوحيد هو زبدة الرسالات الإلهية وغايتها وقطب رحاها وعمدتها. ترتكز كلها عليه. وتستند في وجودها إليه. وتبتديء منه وتنتهي إليه. ولا عجب فهو يقوم على إفراد العبد ربه بما هو محض حقه من أنواع العبادة وصورها وإخلاص القصد والإرادة له في أدائها. واعترافه على نفسه وعلى غيره من المخلوقات بلزوم العبودية لهم في سائر الحالات فالله وحده هو ربهم ومليكهم والقاهر فوقهم: والمتصرف فيهم بما يشاء لا دافع لقضائه ولا راد لمشيئته. وهم جميعاً عبيده المربوبون الفقراء المحدثون الضعفاء الذين لا غنى لهم عنه طرفة عين ولا قيام لهم بدونه لحظة من زمان.

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩.

هذا ولما كنت ممن شرفوا بالانتساب إلى دعوة التوحيد ومن الداوسين لها على هدى من الله وتسديد . ومن العاملين في حقلها إن شاء الله بعزم وتأكيد : أحببت أن أتحف إخواني الموحدين بهذه العجالة أشرح لهم فيها حقائق التوحيد وعناصره. وأعرض أمامهم صوراً ومشاهداً لدعوة التوحيد ممثلة على مسرح الحياة. حيث كان الصراع بينها وبين جحافل الشرك بالغاً مداه. وأبين كيف قام الرسل عليهم الصلاة والسلام بدور البطولة الفذة في ذلك الصراع الرهيب. وكيف كانت العاقبة لهم ولمن تبعهم من المؤمنين.

والله سبحانه أسأل أن ينفع به أجزل النفع: وأن يجعله مرآة تعكس على قلوب الموحدين أضواء التوحيد قوية باهرة حتى تبدد منها كل ظلام: وتكسح أمامها خرافات العقول وضلالات الأوهام. إنه ولي التوفيق والهادي إلى أقوم طريق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف

محمد خليل هراس

منهج البحث

ربما كان من المفيد. بل من الضروري قبل البدء في بحث موضوع ما. أن يقدم الباحث بين يديه صورة من الخطة التي سيلتزمها في بحثه حتى يكون محدد الاتجاه واضح المعالم. ويكون شروعه فيه على بصيرة. وفهم فلا يشرد له فكر ولا يجمع له قلم.

وإذا كنا قد هدفنا من هذا البحث إلى بيان دعوة التوحيد والأدوار التي مرت بها وأشهر الدعاة إليها. فإن هذا سيجعل مهمتنا في البحث ذات شطرين.

١ ـ شطر موضوعي يتعلق ببيان معاني التوحيد وأقسامه وتقرير كل قسم منها وسوق الأدلة المثبتة له: وعلاقة كل قسم منها بالآخر. ثم بيان الأشياء المنافية لكل نوع منها إلى غير ذلك مما يتعلق بلفظة التوحيد من قريب أو بعيد.

٢ ـ وشطر تاريخي يتعلق بالأدوار التي مرت بها دعوة التوحيد من عهد آدم عليه السلام إلى ظهور الإسلام: ويتضمن تفصيل ما قامت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من دعوة أممهم إلى التوحيد وكيف كان هو الأساس الأول لرسالاتهم. ثم بيان موقف أممهم من هذه الدعوات وكيف أن معظمهم صدوا عنها وأثاروا الشغب حولها. وحاولوا فتنة من اتبعها فاستوجبوا العذاب والهلاك.

ويتضمن هذا الشطر أيضاً بيان أن الدين فطرة غرزها الله في البشر: وأنهم كانوا متفقين أول الأمر على التوحيد قبل أن تزين لهم الشياطين عبادة الطواغيت واتخاذ الأصنام والعكوف عليها.

ووفقاً لهذا المنهج الذي بيناه آنفا سيكون هذا البحث هو الأول من نوعه فيما

نعلم. فإننا لم نر أحداً من الباحثين جمع بين المنهجين في مؤلفه. بل اقتصر عامتهم على الناحية الموضوعية: وأما الناحية التاريخية فلم تذكر على سبيل الاستقلال. وإنما جاءت في معرض الحديث عن قصص الأنبياء: ونبدأ الآن ببيان مباحث الشطر الأول: فنقول وبالله التوفيق.

المدلول اللغوي لكلمة توحيد

يقول (الراغب الأصفهاني) في المفردات.

« الوحدة الانفراد والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة ثم يطلق على كل موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به. فيقال عشرة واحدة ومائة واحدة وألف واحد.

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه:

١ ـ الأول ما كان واحدا في الجنس أو في النوع كقولنا (الإنسان والفرس واحد في الجنس) (وزيد وعمرو واحد في النوع).

٢ ـ ما كان واحدا بالاتصال إما من حيث الخلقة كقولك شخص واحد. وإما من حيث الصناعة. كقولك (حرفة واحدة).

٣ ـ ما كان واحداً لعدم نظيره. إما في الخلقة كقولك (الشمس واحدة) وإما في دعوى الفضيلة: كقولك (فلان واحد دهره) وكقولك (نسيج وحده).

٤ ـ ما كان واحداً لامتناع التجزي فيه: إما لصغره كالهباء وإما لصلابته كالماس.

٥ ـ للمبدأ إما لمبدأ العدد: كقولك واحد اثنين وإما لمبدأ الخط كقولك: النقطة الواحدة: والوحدة في كلها عارضة.

وإذا وصف الله تعالى بالواحد: فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزي. ولا

التكثر لصعوبة هذه الوحدة: قال الله تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ [1] والوحد المنفرد. ويوصف به غير الله كقول الشاعر (على مستأنس وحد) وأحد مطلقاً لا يوصف به غير الله تعالى. اهـ.

ويقول ابن الأثير في (النهاية) (في أسماء الله الواحد) هو الفرد الذي لم يزل ولم يكن معه آخر: قال الأزهري:

الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بنى لنفي لا يذكر معه من العدد. تقول ما جاءني أحد. والواحد اسم بنى لمفتتح العدد. تقول جاءني واحد من الناس. ولا تقول جاءني أحد.

فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير: والأحد المنفرد بالمعنى. وقيل الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنـى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل: ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله تعالى اهـ.

من هذين النصين وأشباههما في كتب اللغة نستطيع أن ندرك أن هذه المادة (وَحَدَ) تدور حول انفراد الشيء بذاته أو بصفاته أو بأفعاله وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه.

وإذا عدى بالتضعيف فقيل وحّد الشيء توحيداً كان معناه إما جعله واحداً او اعتقده واحداً، قال الله تعالى حكاية عن المشركين ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ [2].

فتوحيد الله معناه اعتقاد أنه إله واحد لا شريك له، ونفى المثل والنظير عنه والتوجه إليه وحده بالعبادة.

وإذا قيل الله واحد أو أحد كان معنى ذلك انفراده بما له من ذات وصفات وعدم مشاركة غيره له فيها، فهو واحد في إلهيته فلا إله غيره، وواحد في

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٥.

(٢) سورة ص الآية ٥.

ربوبيته فلا رب سواه، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له.

المعاني الاصطلاحية لكلمة (توحيد)

كلمة التوحيد قد تطلق ويراد بها المعنى المصدري كما قدمنا. وقد تطلق ويراد بها الفن المدون المسمى بهذا الاسم.

أما الثاني فقد اختلفت عبارات القوم في تعريفه، فمنهم من يتوسع في مدلول الكلمة حتى تشمل جميع مباحث العقيدة، سواء ما تعلق منها بالله عز وجل وصفاته أم بالرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حيث ما يجب لهم وما يجوز ويمتنع عليهم أم باليوم الآخر وتفصيل ما يقع فيه، وبجميع أخبار الغيب التي وردت في الكتاب والسنة.

ومنهم من يجعله قاصراً على البحث في ذات الله وصفاته، ومنهم من يسميه (علم الصفات) وقد عرفه الشيخ محمد عبده رحمه الله في رسالة التوحيد بأنه «علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم» فلم يذكر في تعريفه شئون الغيب وأحوال المعاد.

ثم قال بعد ذلك:

وأصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له، وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم اجزائه، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد. وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ كما تشهد به آيات الكتاب العزيز، وسيأتي بيانه.

وقد غلط الشيخ عبده في اعتباره توحيد الربوبية والانفراد بالخلق هو الغاية

العظمى من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام: فإن هذا النوع من التوحيد كانت تقر به الأمم التي بعثت إليها الرسل ولم يقع نزاع فيه بينهم وبين الرسل، وإنما كان النزاع في توحيد الإلهية والعبادة، ولهذا لم يجيء على لسان الرسل عليهم السلام الدعوة إلى اعتقاد أن الله هو وحده الخالق، وإنما كان مدار دعوتهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، فكل منهم كان مفتتح دعوته لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ (١).

ولهذا أيضاً كانت كلمة التوحيد التي أمر الرسول ﷺ أن يدعو إليها وأن يقاتل الناس حتى يقولوها هي ﴿لا إله إلا الله﴾ (٢) ومعنى الإله المعبود، ولو كان توحيد الربوبية هو المقصود لكانت كلمة التوحيد هي ﴿لا رب إلا الله﴾ والقرآن نفسه يحكي عن المشركين أنهم كانوا يقرون لله بالربوبية المطلقة، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ (٣).

وقال ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله﴾ (٤).

ولعل فضيلة الشيخ عبده في هذا كان متأثراً بالأشعرية الذين جعلوا الانفراد بالخلق هو أخص خصائص الإلهية. واهتموا في كتبهم بإقامة البراهين على هذا النوع من التوحيد دون أن يشيروا إلى توحيد الإلهية الذي هو أقصى الغايات ونهاية النهايات.

وقد أحسن العلامة السيد رشيد رضا حين قال مستدركا على أستاذه: فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة. وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام المذكرة بهم وغير ذلك. كالنذور والقرابين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩.
(٢) سورة محمد الآية ١٩.
(٣) سورة لقمان الآية ٢٥.
(٤) سورة يونس الآية ٣١.

هذا التوحيد هو الذي كان أول ما يدعو إليه كل رسول قومه بقوله: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ [1] انتهى.

والتعريف المشهور عند المتكلمين للتوحيد أنه (علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية عن أدلتها اليقينية) وهو يرجع الى اعتبار هذا العلم ملكة يتمكن معها صاحبها من إيراد الحجج على العقائد ودفع الشبه عنها.

وأما التوحيد بالمعنى المصدري فهو كما قال الشيخ عبده (اعتقاد ان الله واحد لا شريك له) لكن هذه الوحدة تتنوع بتنوع متعلقاتها ولهذا كان لا بد من معرفة أقسام التوحيد حتى تتبين موارد تلك الوحدة وتتضح معانيها.

يقول العلامة على بن أبي العز الحنفي في شرحه على العقيدة الطحاوية: ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان (١) توحيد في الإثبات والمعرفة (٢) وتوحيد في القصد والطلب فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ليس كمثله شيء في ذلك كله كما أخبر عن نفسه وكما أخبر رسوله ﷺ.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح كما في أول (الحديد). (طه) وآخر (الحشر) وأول (ألم تنزيل) السجدة وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكمالها إلى غير ذلك.

والثاني هو توحيد الطلب والقصد: مثل ما تضمنته سورة (قل يا أيها الكافرون﴾. ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ [2] وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها وأول سورة (الأعراف) وآخرها وجملة سورة (الأنعام) ثم يقول بعد ذلك:

«وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد. بل كل سورة في القرآن. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته. وهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩. (٢) سورة آل عمران الآية ٦٤.

إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته. فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة: وهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من التكال وما فعل بهم في العقبى من العذاب. فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه. وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. اهـ.

وواضح أن هذا التقسيم الذي ذكره شارح الطحاوية إنما هو باعتبار ما يجب على الموحد. فأحيانا يطلب منه مجرد العلم والمعرفة بعقيدة التوحيد. وأحيانا يطلب منه توجيه القصد والإرادة وإخلاص العبادة لله. أما تقسيم التوحيد باعتبار متعلقه. فيذكره في مكان آخر حيث يقول: « فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

(١) أحدها الكلام في الصفات.

(٢) والثاني توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

(٣) والثالث توحيد الإلهية وهو استحقاقه أن يعبده وحده لا شريك له».

وأرى واجبا الآن أن أخص كل واحد من هذه الأنواع ببحث يجلي غامضه ويحدد مفهومه. ثم آخذ بعد ذلك في بيان علاقة كل منها بالآخر.

توحيد الأسماء والصفات

يقوم هذا النوع من التوحيد على أسس ثلاثة:

الأول: أن أسماء الله عز وجل وصفاته كلها توقيفية لا يجوز إطلاق شيء منها على الله في الإثبات أو في النفي إلا بإذن من الشرع. فلا نثبت لله سبحانه

من الأسماء والصفات إلا ما أثبته هو لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ . ولا ننفي عنه كذلك من الأسماء والصفات. إلا ما نفاه هو عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ .

وما لم يصرح الشرع بإثباته ولا بنفيه يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يراد به. فإن أريد به معنى صحيح موافق لما جاء به النص قبل وإلا وجب رده.

الأصل في ذلك أن معرفة الله عزو وجل بأسمائه وصفاته وبما يجب له أو يمتنع أو يجوز عليه لا سبيل إلى إدراكها بالعقل وحده لأنها من شئون الغيب التي لا تدخل في نطاق قدرته. وإنما كل وظيفة العقل في ذلك أن يفهم ما تضمنته النصوص من معاني أسماء الرب وصفاته.

وإذا كان معلوماً أن الله عز وجل أعلم بنفسه من خلقه وأصدق قيلا وأهدى سبيلا. وأن رسوله المبلغ عنه أعلم به كذلك وبما يجب له ويمتنع عليه من كل أحد. وهو أقدر الناس على بيان ذلك وأحرصهم على هداية الخلق إليه. فلا يجوز التعويل إذاً في هذا الباب على غير الكتاب والسنة وحدهما. فإن الله عز وجل لم يكلنا في معرفة شيء من أسمائه وصفاته إلى شيء وراء ما دل عليه ظاهر الكتاب والسنة. فمن عوّل في شيء من ذلك على قضية عقل أو استحسان برأي أو دعوى إلهام أو كشف أو غير ذلك فقد قال على الله بغير علم وضل عن سواء السبيل.

٢ ـ الأساس الثاني:

أن الله عز وجل في كل ما ثبت له من الأسماء والصفات لا يماثل شيئاً من خلقه ولا يماثله شيء بل كل ما ثبت له من صفات الكمال التي وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة فهو مختص به لا يشركه فيه أحد من خلقه.

وليس معنى هذا أن ما يطلق على الرب أو على صفاته من أسماء لا يسمى به

غيره فقد يكون الاسم مشتركاً بينه وبين غيره أو بين صفته وصفة غيره، ولكن هذا الاشتراك في الاسم لا يوجب مماثلة المخلوقين له فيما دلت عليه هذه الأسماء.

فتسميته تعالى عالماً وتسمية العبد عالماً لا يوجب مماثلة علم الله لعلم العبد. وكذا تسميته تعالى مريداً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلما إلى غير ذلك من الأسماء التي قد تطلق على المخلوقين لا يوجب أن تكون إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته الخ.

والأصل في ذلك أن ما يوصف الله عز وجل به ويوصف به العباد إنما يوصف الله به على ما يليق به ويوصف به العباد على ما يليق بهم. فالاشتراك إنما هو في مفهوم الاسم الكلي. وذلك إذا أخذ الاسم مطلقاً غير مضاف. فإذا أضيف صار مختصاً لا يقبل الشركة.

فإذا قيل علم الله وقدرة الله وإرادة الله ونحو ذلك. كان المراد صفته الخاصة به التي لا يشاركه فيها المخلوق.

وإذا قيل علم العبد وقدرته وإرادته ونحو ذلك. كان المراد صفته الخاصة به التي يتنزه عنها الخالق جل شأنه.

وإذا فهم هذا الأساس الثاني على هذا الوجه البين لم يكن هناك موجب أصلا لنفي بعض الصفات الثابتة بالكتاب والسنة بحجة أن إثباتها يوهم المماثلة بين الله وبين خلقه، وذلك لأنها إن أطلقت على الله عز وجل حملت على ما يليق به مما لا يماثل صفة المخلوق، وإذا أطلقت على المخلوق حملت على ما يليق به مما لا يماثل صفة الخالق، وحينئذٍ لا نحتاج الى التعسف في تاويل هذه النصوص وصرفها عن معانيها المتبادرة منها، لا سيما وأن هذه النصوص في الكتاب والسنة من الكثرة والصراحة بحيث لا يمكن تاويلها إلا إذا اعتبرنا الشرع كله أحاجي وألغازاً لا يدل لفظ منه على معناه وهذا اتهام للشرع بأن خطابه غير مفهم ولا مبين، ولا دال على الحق الذي يجب اعتقاده. ولهذا تجد الذين عمدوا إلى تأويل هذه النصوص بحجة إيهامها التشبيه لم يتفقوا على تأويل واحد بل ذهب كل فريق

منهم فيها مذهباً يلائم أصول نحلته، فالفلسفي له فيها تأويل، والمعتزلي له تأويل، والأشعري المعطل له فيها كذلك تأويل.

فهل يعقل أن توصف هذه التأويلات مع اختلافها وتناقضها بأنها الحق الذي أراد الله منا أن نعتقده من هذه النصوص؟ كلا بل الأقرب إلى الفطرة والعقل والمنطق أن يفهم من هذه النصوص معانيها التي دلت عليها بمقتضى الوضع اللغوي لهذه الألفاظ ثم ينفي الكيفية والتشبيه عنها.

فإذا كان الله قد وصف نفسه مثلا بالاستواء على العرش، وبالمجيء يوم القيامة، وبأن له وجهاً ويدين وعينين، وبأنه يحب ويرضى ويكره، ويسخط ويرحم ويغضب.

وإذا كان قد وصفه رسوله ﷺ بأنه ينزل إلى السماء الدنيا. ويدنو من الحجاج عشية عرفة، وبأنه يضحك ويعجب الخ ما جاءت به النصوص الصحيحة من صفات الذات وصفات الفعل، فيجب أن يحمل ذلك كله على حقيقته دون أن يفهم منه التماثل بين الله وبين خلقه في شيء من هذه الصفات، فإن حقائقها بالنسبة لله عز وجل غير حقائقها بالنسبة للمخلوقين، فاستواؤه ليس كاستوائهم، ولا مجيئه كمجيئهم، ولا يده كيدهم، ولا حبه ورضاه كحبهم ورضاهم، فإن الاشتراك في الأسماء لا يقتضي تماثل المسميات.

٣ ـ الأساس الثالث:

أن صفاته سبحانه صفات كمال كلها، فهو موصوف بصفات الكمال التي لا غاية وراءها، بريء من سمات النقص والاحتياج والحدوث، والواجب أن يثبت له سبحانه أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون هناك كمال عار عن النقص إلا وهو ثابت له يستحقه بكمال ذاته، ويتنزه عن الاتصاف بضده.

وضابط ذلك أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق كان الخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه، ولكن

ينبغي أن يعلم أن الكمال لا يكون إلا أمراً وجودياً، أما الأمور السلبية أو العدمية فلا تكون كمالا إلا إذا تضمنت أموراً وجودية، فإن العدم المحض ليس بشيء أصلا. فضلا عن أن يكون كمالا، ولهذا لم يرد في الكتاب ولا في السنة صفة سلب، إلا وهي متضمنة إثبات ما يضادها من الكمال.

فنفي العجز مثلا في قوله تعالى ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ [1] متضمن لإثبات كمال قدرته.

ونفي السنة والنوم في قوله ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [2] لإثبات كمال حياته وقيوميته: ونفى الشريك والند والصاحبة والولد لإثبات كمال غناه وعظمته.

والمتتبع لصفات النفي التي وردت في الكتاب والسنة يجدها مجملة في أغلب أحوالها لا يقصد بها إلا نفي المثل والشبيه عنه سبحانه. كقوله من سورة مريم عليها السلام ﴿هل تعلم له سميا﴾ [3] أي مسامياً يساميه أو نظيراً يستحق مثل اسمه. وكقوله من سورة الشورى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [4] وكقوله في سورة الإخلاص ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ [5].

وأما صفات الإثبات فإنها ترد على سبيل التفصيل لأنها مقصودة لذاتها. ومن هنا كان الواجب أن نقتصر من صفات السلب على ما ورد في الكتاب والسنة ولا نتوسع فيها بحجة المبالغة في التنزيه كما فعل الجهمية من الفلاسفة والمعتزلة ومتأخري الأشعرية فإن هذا التوسع في صفات النفي قد يفضى إلى نفي الواجب نفسه جل وعلا حيث لا يعقل وجود ذات تتصف بكل هذه السلوب التي يقررها هؤلاء في كتبهم من أنه تعالى ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا كم له ولا كيف ولا أين. ولا مقدار ولا صورة ولا يشار إليه. ولا يجوز عليه الاتصال والانفصال والقرب والبعد. ولا هو في جهة ولا مكان. وليس بذي حد ولا

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٣) سورة مريم الآية ٦٥.

(٤) سورة الشورى الآية ١١.

(٥) سورة الإخلاص الآيتان ٣ و ٤.

نهاية. ولا يصعد إليه شيء ولا ينزل من عنده شيء ولا يقبل الحركة والسكون والمجيء والإتيان. والصعود والنزول، إلى غير ذلك مما سموه تنزيهات وهو في واقع الأمر ليس إلا تعطيلا للذات، وجحداً لوجودها الحق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

صفات الذات وصفات الأفعال

يراد بصفة الذات ما تكون لازمة الذات أزلا وأبداً لا يتصور انفكاكها عنها. وذلك كصفة الحياة والقدرة والعلم والعزة والعظمة والكبرياء والجلال إلخ ويراد بصفة الفعل ما يحدثه سبحانه في ذاته بمشيئته وقدرته من أفعال على وفق علمه وحكمته كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والحب والرضى والكراهة والمقت والنزول والأستواء والقول والتكليم والمجيء والاتيان إلخ. فمن الناس وهم الاشعرية من لم يثبت إلا صفات أزلية لازمة لذاته وحددوها بسبع صفات وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام ونفوا صفات الفعل الاختيارية فمنها ما جعلوه تعلقات للقدرة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها من الافعال الممكنة وزعموا أن الفعل فيها عين المفعول. ومنها ما جعلوه تعلقات للإرادة مثل المحبة والرضى والغضب والكراهية ونحوها.

والذي حملهم على نفي هذه الصفات اعتقادهم أن القديم لا يكون محلا للحوادث لأن ذلك يفضي في زعمهم إلى حدوث القديم. ولم يفرقوا بين جنس الحوادث وأشخاصها. ولا بين حادث يحدثه هو في ذاته بمشيئته وقدرته وبين حادث يحدثه فيه غيره فلزمهم نفي ما لا يحصى من صفات الفعل التي وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة من كونه سبحانه يتكلم متى شاء ويحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم. ويبغض ويسخط على الكافرين بعد كفرهم وأنه إذا خلق المخلوقات رآها وسمع اصوات عبادة، ومن كونه يجيء يوم القيامة وينزل الى السماء الدنيا كل ليلة ويدنو من الحجاج عشية عرفة. ويعجب من قنوط عباده وقرب خيره ويضحك إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل

الجنة إلخ.

والذي كان عليه سلف هذه الأمة إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات. لا فرق بين صفة الذات وصفة الفعل، ولا فرق بين ما كان من الأفعال متعلقاً بالذات كالاستواء على العرش والمجيء والإتيان والنزول إلخ. أو ما كان متعديا إلى غيره كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة.

الأدلة على ثبوت الصفات

ولعل من المفيد هنا أن نلخص الحجج التي يتمسك بها أهل الإثبات من أتباع مذهب السلف رضي الله عنهم ويردون بها على المعطلة والمؤولة.

(١) فأولى هذه الحجج وأقواها أن نصوص الكتاب والسنة كلها متضافرة على الإثبات ولم يرد فيهما نص واحد يدل على النفي يعرف ذلك كل من له إلمام بتلك النصوص المتعلقة بالصفات.

فلو كان ما يقوله النفاة لتلك الصفات هو الحق وكان الإثبات مستلزما للمحال فكيف لم يقل الله ولا رسوله يوما من الدهر في مدى ثلاث وعشرين سنة كان ينزل فيها الوحي. يا أيها الناس لا تعتقدوا ظاهر ما دلت عليه هذه الآيات والأحاديث. فإن ظواهرها مستحيلة على الله وإن لها معاني أخر غير ما يفهم منها. كيف يجوز على الله سبحانه ثم على رسوله ﷺ أن يكون كلامهما دائما بما هو نص أو ظاهر في خلاف الحق. ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط لا نصا ولا ظاهراً.

(٢) والحجة الثانية وهي لا تقل قوة عن سابقتها أن القرون الثلاثة الأولى التي هي خير قرون هذه الأمة بشهادة رسول الله ﷺ قد مضت وكلام السلف كله في الإثبات بلا تأويل فلم يرد عن واحد منهم ما يدل لا نصاً ولا ظاهراً على أنه أول آية من آيات الصفات أو قال إن ظاهر معناها مستحيل على الله.

ولا شك أن هؤلاء السلف هم أكمل الأمة علما وإيمانا وإجماعهم حجة قاطعة فإنهم لا يجتمعون على ضلالة وإذا اختلفوا فالحق لا يخرج عنهم.

فلو كان ما يقوله هؤلاء النفاة هو الحق الذي يجب على كل مسلم أن يعتقده فكيف يسع هؤلاء الفضلاء من سلف هذه الأمة السكوت عنه وعدم بيانه للناس؟ إن ذلك لا يكون إلا لواحد من أمرين (١) إما إنهم كانوا يجهلون الحق الذي يجب اعتقاده في الله تعالى وحاشاهم فهم أعلم هذه الأمة بربها وبما يجب له ويمتنع عليه وقد مدحهم الله في كتابه وأثنى عليهم بالعلم والمعرفة وأخبر أنه رضي عنهم ورضوا عنه.

وإما أن يكونوا علموا الحق ولكنهم كتموه ولم يبينوه زجراً للعامة عن الخوض في التأويلات وحاشاهم أيضاً أن يسكتوا على باطل أو يقروا أحداً على اعتقاده.

فلو كان إثبات هذه الصفات الخبرية باطلا وكان تأويلها بما أولها به الخلف واجبا لما وسع سلف هذه الأمة جهله أو السكوت عنه فسكوتهم عن التأويل وتضافر كلامهم على الإثبات أعظم دليل على أن الحق هو إثباتها بلا تأويل وأن التأويل هو عين التعطيل.

شبه النفاة للصفات والرد عليها

يلجأ النفاة لصفات الله عز وجل إلى بعض الحجج التي يدعمون بها مذاهبهم في النفي ونحن نذكر هنا أقوى حججهم ونرد عليها.

(١) قالوا إن الدليل العقلي دل على استحالة تلك الظواهر. فلو اعتقدناها كان ذلك مكابرة للعقل وإن أنكرناها كان ذلك تكذيبا بالشرع: فوجب إزالة للتعارض تأويلها بما يوافق حكم العقل. وما دامت اللغة العربية قد وردت بالحقيقة والمجاز. واستحال حمل هذه الظواهر على معانيها الحقيقية عند العقل وجب صرفها إلى معان اخر بطريق المجاز.

والجواب أن دعوى حكم العقل باستحالة هذه الظواهر إنما بنوه على إستلزامها للمماثلة. لأنهم لا يفهمون من هذه الظواهر عند إطلاقها على الله عز وجل إلا ما يفهم منها عند إطلاقها على المخلوق وقد بينا خطأ ذلك. فإن ظاهر لفظ اليد مثلا إذا أضيف إلى الله يفهم منه معنى غير ما يفهم منه إذا أضيف إلى غيره. وكذلك لفظ العين والوجه والاستواء والنزول وغيرها.

ولكن هؤلاء لما جعلوا اللفظ حقيقة في صفة المخلوق، ولا يفهم منه عند الإطلاق غيرها، أوجبوا تأويله وصرفه عن هذه الحقيقة عند إطلاقه على الله، وقد قدمنا أن لكل لفظ من هذه الألفاظ معنى كلياً هو حقيقته التي يدل عليها عند الإطلاق، وأن هذه الحقيقة تحتها أفراد وخصوصيات، فإذا أضيف اللفظ تعين مسماه وكان دالا بالحقيقة على واحدة من هذه الخصوصيات، فيقال يد زيد مثلا ويد الدابة ويد الإبريق ويد الله إلخ، فيكون اللفظ في كل منها دالا على معنى خاص هو صفة للمضاف إليه.

على أن دعوى المجاز لا يمكن أن تسمع، فإن اللفظ المستعمل في معنى بطريق الحقيقة لا يجوز صرفه عن معناه إلى معنى آخر بطريق المجاز إلا إذا اجتمع له أربعة أشياء:

١ ـ الأول أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يصح أن يراد من اللفظ بأن يكون اللفظ مستعملا فيه في لغة العرب، وإلا لأمكن لكل أحد أن يفسر أي لفظ بأي معنى وإن لم يكن له أصل في اللغة.

٢ ـ الثاني أن يكون مع اللفظ قرينة سمعية أو عقلية توجب صرفه عن حقيقته إلى مجازه.

٣ ـ الثالث أن لا يكون هناك معارض لتلك القرينة يقتضي إرادة الحقيقة وإلا وجب إرادتها من اللفظ وامتنع تركها.

٤ ـ الرابع أن المتكلم بكلام يريد به خلاف ظاهره لا بد أن يبين ذلك، لا سيما في الخطابات العلمية التي يراد بها الاعتقاد، ويتأكد ذلك إذا كان المتكلم هو

أفصح الخلق وأقدرهم على البيان وأحرصهم على إفادة الحق والنصح للخلق، لا يجوز أبداً أن يلقي القول على عواهنه دون أن يبين للناس ما عناه به، وإلا كان ذلك قصوراً في البيان يجب أن يتنزه عنه أفصح الكلام [١].

وأيضاً فإن هؤلاء الذين يحكمون باستحالة هذه الظواهر عند العقل ليس لديهم قانون ثابت لما يحيله العقل أو يجوزه. لهذا تراهم في أمر مريب، فهذا يحيل ما يجوزه الآخر أو يوجبه وذاك يوجب ما يحيله الآخر أو يجوزه.

ولنضرب مثلا لذلك مسألة الرؤية. فإن المعتزلة الذين أنكروها يزعمون أن العقل يحيل رؤية بلا جهة، وأنهم مضطرون إلى تأويل النصوص الواردة بإثباتها، بينما يخالفهم خصومهم من الأشعرية في تلك الاستحالة العقلية ويقولون إن الرؤية لا تستلزم الجهة فيمكن أن تقع بدونها.

فبأي عقل إذاً يمكن أن توزن نصوص الكتاب والسنة والعقول كما ترى مختلفة متناقضة؟.

الآيات والأحاديث في توحيد الأسماء والصفات

لا يمكن إحصاء الآيات الواردة في هذه النوع من التوحيد، لأنها من الكثرة بحيث يصعب استيعابها، ولكنا نذكر بعضها هنا على سبيل المثال.

يقول الله عز وجل في اعظم آية في كتابه ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض، من الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظها وهو العلي العظيم﴾ [٢].

---

(١) ومن أراد التوسع في إبطال المجاز في القرآن والحديث فليرجع إلى كتاب ابن القيم (الصواعق المرسلة) وقد نشرته دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

فقد تضمنت هذه الآية العظيمة جملة كبيرة من الصفات في النفي والإثبات، فأخبرت عن تفرده سبحانه بالإلهية واستحقاق العبادة وأنه الحي بالحياة الذاتية الكاملة التي لا يطرأ عليها ما يضادها من عدم أو موت، وأنه القائم بنفسه المستغني عن جميع خلقه مع قيامه بتدبير أمورهم بحيث لا يغفل عنهم لحظة ولا غنى لهم عنه طرفة عين وأنه المالك الذي لا يخرج شيء في السموات ولا في الأرض عن ملكه وقهره. وأن أحداً لا يجرؤ أن يشفع عنده إلا بإذنه، وأن علمه محيط بجميع الأمور الماضية والمستقبلة على حين لا يعلم خلقه من ذلك إلا ما شاء أن يعلمهم إياه. وأنه بلغ من سعة الملك وعظمة السلطان أن كرسيه الذي هو موضع قدميه وسع في جوفه السموات والأرض جميعاً، وأن هذا الملك الواسع العظيم لا يكرثه ولا يثقل عليه حفظه وتدبيره، وأنه العلي المتصف بكل معاني العلو، علو الذات. فهو مستو على عرشه بائن من خلقه، وعلو القهر. فهو القاهر فوق عباده وعلو القدر، فهو العظيم الذي لا حد لعظمته.

ويقول سبحانه في أول سورة آل عمران ﴿ألم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[1].

وهنا وصف نفسه أيضاً بالوحدة في الإلهية وبالحياة والقيومية وبإنزال الكتب السماوية من القرآن والتوراة والإنجيل فضلا منه ورحمة لهداية الناس وفرقاناً بين الحق والباطل.

ثم وصف نفسه بالعزة وهي القهر والغلبة لمن عصاه وبأنه ذو انتقام ممن خالفه وكذب رسله، وبأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه المصور للأجنة في أرحام الأمهات في الصور التي يشاء من ذكورة أو أنوثة

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١ ـ ٦.

وبياض أو سواد وجمال أو قباحة إلخ وأنه الاله الواحد الموصوف بتمام العزة وكمال الحكمة.

ويقول جل شأنه في آخر سورة بني إسرائيل ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً﴾ (١).

وفي هذه الآية التي كانت تسمى آية العز يحمد سبحانه نفسه على تنزهه عن النقائض. فهو لم يتخذ ولداً لكمال غناه وعدم حاجته إليه، وليس له شريك في الملك ينازعه السلطان أو يكون ظهيراً له في التدبير، وليس له كذلك ولي من ذل أو حاجة، بل هو الله العلي الكبير.

ويقول في أول سورة طه ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى، الرحمن على العرش استوى. له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ (٢).

وفي هذه الآيات يخاطب الله رسوله ﷺ بأنه ما أنزل عليه القرآن العظيم ليشقى ويتعب نفسه بطول القيام به أو بالحرص على هداية قومه به، وإنما أنزله ليذكر به أهل الخشية الذين ينتفعون بما فيه من هداية، ثم أخبر أن هذا القرآن إنما هو تنزيل من رب العالمين الذي خلق السموات والأرض جميعاً ثم استوى على عرشه لتدبير أمور خلقه، وأن كل ما في السموات والأرض له وحده ملكا وخلقاً وعبيداً، وأنه يستوي عنده السر والجهر، فإن علمه نافذ يصل إلى كل خفي، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، وأنه سبحانه الواحد في إلهيته الذي له الأسماء الحسنى الدالة على صفات كماله.

ويقول في أول سورة الحديد ﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. هو

---

(١) سورة الإسراء الآية ١١١.

(٢) سورة طه الآيات ١ ـ ٨.

الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعلمون بصير، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل: وهو عليم بذات الصدور﴾ (١).

فأنظر كيف تبتديء السورة بالإخبار عن تسبيح الأشياء كلها بحمده سبحانه وأنه العزيز الغالب الذي يقهر ولا يقهر والحكيم في خلقه وأمره المنزه عن العبث والباطل، وأن له الملك التام في السموات والأرض يتصرف فيه بقدرته التي لا يعجزها شيء إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً. وأنه الأول الذي لا شيء قبله والآخر الذي لا شيء بعده، والظاهر الذي لا شيء فوقه، والباطن الذي لا شيء دونه، وأنه مع ظهوره وعلوه لا يخفي عليه شيء من خلقه وأنه هو وحده الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم علا وارتفع على عرشه، وهو مع ذلك يعلم ما يدخل في جوف الأرض من مياه وحب وكنوز ومعادن، وما يخرج منها كذلك، ويعلم ما ينزل من السماء من أمطار وصواعق وملائكة، وما يعرج أي يصعد فيها من أعمال وملائكة وأرواح إلخ.

وهو كذلك مع علوه وارتفاعه على عرشه مع خلقه أينما كانوا فهو يسمع أقوالهم ويرى أعمالهم. وهو محيط بهم علماً وقدرة، فصار كأنه معهم كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام، إنني معكما أسمع وأرى.

ويقول في آخر سورة الحشر ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (٢).

---

(١) سورة الحديد الايات ١ - ٦.
(٢) سورة الحشر الآيتان ٢٣ و ٢٤.

وفي هذه الآيات كذلك يصف نفسه سبحانه بأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وبأنه عالم بكل ما غاب وما حضر، فلا يعزب عن علمه شيء، وبأنه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وبأنه الملك الذي لا منازع له في ملكه، وبأنه القدوس المبرأ عن كل شائبة نقص وسوء، وبأنه السلام الذي سلم من جميع الآفات والعيوب أو الذي يسلم على عباده في الجنة، وبأنه المؤمن الذي يصدق رسله بالآيات أو الذي يؤمن عبادة المؤمنين من عذابه، وبأنه المهيمن الرقيب على خلقه، وبأنه العزيز الممتنع على كل من أراده والغالب لكل من عاداه وكذب رسله وبأنه الجبار الذي يجبر خلقه على ما يشاء أو يجبر كسرهم بإصلاح شئونهم، وبأنه المتكبر الذي تكبره بحق، لأن كل من دونه حقير إذا أضيف إليه، وبأنه الخالق المقدر للأشياء وبأنه الباريء المبرز لها من العدم، وبأنه المصور لها الذي يعطيها شكلها وأوصافها، وبأن الأسماء الحسنى التي لا نقص فيها كلها له ليس لغيره شركة معه في شيء منها.

ويقول تعالى في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن ﴿قل هو الله أحد الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ (١)

فأخبر عن نفسه بالأحدية المطلقة التي تتناول وحدة الذات والصفات والأفعال وبأنه الصمد يعني السيد الغني الذي يصمد إليه الخلق ويقصدونه في حوائجهم ثم نفى عن نفسه الولد لتمام ملكه وغناه فهو لا يحتاج إليه وكذلك نفى أن يكون غيره والدا له فيكون أصلا له سابقا عليه ثم نفى أن يكون أحد كفواً له أي مماثلا ومشابها.

وأما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة جدا نجتزيء منها بما يلي:

١ - (اللهم رب السموات السبع والأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر

---

(١) سورة الإخلاص الآية كلها

فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر) رواه مسلم .

٢ - « ينزل ربنا الى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقي ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فاعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » متفق عليه .

٣ -(الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن حين يتوب إليه من أحدكم براحلته عليها طعامه وشرابه وقد أضلها بأرض فلاة) متفق عليه .

٤ - (عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ينظر اليكم أزلين قنطين يظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب) حديث حسن .

٥ - (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة) متفق عليه .

٦ -(قوله ﷺ للجارية أين الله ؟ فقالت في السماء فقال لسيدها أعتقها فإنها مؤمنة) حديث متواتر .

ونكتفي بهذا القدر في بيان توحيد الأسماء والصفات وننتقل إلى النوع الثاني وهو .

توحيد الربوبية

قال الراغب في « المفردات » .

« الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام ، يقال ربه ورباه ورببه ، وقيل لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن يعني لأن يملكني .

- فالرب مصدر مستعار مستعمل للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله

تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ [1] وعلى هذا قال ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ [2] أي آلهة وبالإضافة يقال له ولغيره نحو ﴿رب العالمين﴾ و ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ [3] ويقال رب الدار ورب الفرس لصاحبها.

وعلى ذلك قوله تعالى﴿ اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ [4] وقوله ﴿قال معاذ الله **إنه ربي** أحسن مثواي﴾[5] قيل عنى به الله **وقيل عنى به الملك الذي** رباه، والأول أليق بقوله.

وفي النهاية لابن الأثير، «الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم. ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال (رب كذا) ومنه حديث أبي هريرة (**لا يقل المملوك لسيده ربي**) كره أن يجعل مالكه ربا له لمشاركة الله تعالى في الربوبية.

فأما قوله تعالى ﴿اذكرني عند ربك﴾[6] فإنه خاطبه على المتعارف عندهم وعلى ما كانوا يسمونهم به.

فأما الحديث في ضالة الإبل حتى يلقاها ربها فإن البهائم غير متعبدة ولا مخاطبة فهي بمنزلة الأموال التي يجوز إضافة مالكيها إليها وجعلهم أربابا لها. ا هـ.

من هذا يتبين أن للفظ الرب عدة معان، وهذه المعاني كلها مما يصح أن تراد بلفظ الرب إذا أُطلق على الله تعالى فهو المربي للأشياء الذي ينميها وينقلها في الأطوار المختلفة حتى يبلغ بها غاية كمالها. وهو المالك لها والسيد عليها والمدبر لمصالحها. والقائم بحفظها وكلاءتها إلخ.

---

(١) سورة سبأ الآية ١٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ٨٠.
(٣) سورة الشعراء الآية ٢٦.
(٤) سورة يوسف الآية ٤٢.
(٥) سورة يوسف الآية ٢٣.
(٦) سورة يوسف الآية ٤٢.

لهذا كانت شئون الربوبية كلها من الخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف مختصة به سبحانه لا يشاركه فيها أحد من خلقه وهذا أمر مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد حتى إن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بذلك ولا ينكرونه ولا يجعلون أحداً من آلهتهم شريكا لله في ربوبيته.

قال تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾[1] وقال ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله - قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأني تسحرون﴾[2].

إلى آخر ما هنالك من الآيات التي تفيد إقرار المشركين من العرب بتوحيد الربوبية وانفراد الله عز وجل بجميع شئونها من خلق ورزق وإحياء وإماتة وتدبير وتصريف ولم يعرف عن أحد من طوائف العالم نازع في هذا إلا الدهرية الذين يجحدون الصانع. وهم الشيوعيون الآن والملاحدة ويزعمون أن العالم يسير بنفسه ويقولون ما حكاه عنهم القرآن ﴿ما هي **إلا حياتنا** الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾[3] وكذلك التنويه من المجوس الذين يجعلون للعالم **خالقين، خالقا** للخير وهو النور وخالقاً للشر وهو الظلمة وأهل التثليث من النصارى الذين يجعلون الآلهة ثلاثة الآب والإبن والروح القدس.

ولكن هاتين الطائفتين مع ذلك لا تقولان بالتساوي بين هذه الأرباب، فالمجوس لا يسوون الظلمة بالنور بل النور عندهم هو الأصل الأزلي، والظلمة حادثة، **ويقولون إن النور سيغلب** في النهاية، وكذلك النصارى لا يجعلون هذه الأقانيم الثلاثة بدرجة واحدة بل الآب عندهم هو الأقنوم الأول والإله الأكبر.

---

(١) سورة يونس الآية ٣١.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٨٤ - ٨٩.
(٣) سورة الجاثية الآية ٢٤.

والحاصل أنه لا يوجد بين طوائف البشر من يقول بوجود ربين أو إلهين متكافئين في الصفات والأفعال.

ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد الربوبية ويجعل لغير الله عز وجل شيئا من الشركة معه في الخلق أو التدبير لم يهمل القرآن الكريم الاحتجاج له بل قرره أبدع تقرير في قوله من سورة (المؤمنون) ﴿ما اتخذ الله من ولد ما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا **بعضهم على بعض سبحان** الله عما يصفون﴾ [1].

يقول العلامة شارح الطحاوية بعد ذكره لهذه الآية الكريمة «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه: لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرض تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل. وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

(١) إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

(٢) وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

(٣) وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١.

وملك واحد ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه.

إلى أن يقول (فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطرة، **معلوم بصريح العقل بطلانه،** فكذا تبطل إلهية **اثنين. فالآية الكريمة موافقة** لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية) اهـ.

الآيات والأحاديث في توحيد الربوبية

جرت عادة القرآن الكريم أن يلزم المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية فيجعله برهاناً واضحاً على وجوب إفراده سبحانه بالإلهية، فإن الذي يستحق من العباد أن يعبدوه هو من كان رباً خالقاً ومالكا مدبراً، وأما من لا شأن له في خلق ولا في تدبير لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً إذ لم يصلح لأن يكون ربا مقصودا.

ولهذا تراه يسوق الآيات والدلائل الشاهدة بربوبيته تعالى لكل شيء، ثم ينتقل منها إلى الدعوة لعبادته وحده.

قال تعالى من سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءاً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ (١).

فهذا خطاب عام لجميع الناس أن يعبدوا ربهم أي يخصوه وحده بالعبادة إذ لا رب لهم غيره فهو الذي خلقهم وخلق آباءهم الأولين وهو الذي جعل لهم هذه الأرض مهاداً يتقلبون عليها ويمشون في مناكبها وهو الذي أنزل لهم من السحاب ماء فأجراه أنهاراً **سلكه ينابيع فاخرج لهم به من** جميع الثمرات فلا تجعلوا لله أنداد أي نظراء من خلقه تساوونهم به في استحقاق العبادة وأنتم تعلمون أنها لم

(١) سورة البقرة الآيتان ٢١ و ٢٢.

تخلق شيئاً .

وقال جل شأنه من نفس السورة ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [1].

وقال سبحانه من سورة النمل ﴿أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [2] ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله﴾ [3] ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [4] فهذه الآيات تنفي أن يكون إله معه ما دام هو الرب وحده ! .

ويقول جل شأنه في سورة النحل بعد أن ذكر آيات ربوبيته في الخلق والتدبير « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » فنفى الإلهية عن كل ما يدعي من دونه لأنه لا يخلق شيئاً بل هو مخلوق ولأنه ميت غير حي ولا يدري متى يبعث .

---

(١) سورة الايتان ١٦٣ و ١٦٤ .

(٢) سورة النمل الآيتان ٦٠ و ٦١ .

(٣) سورة النمل الآيات ٦٢ - ٦٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١١١ .

ويطول بنا القول لو أردنا استقصاء ما جاء في الكتاب العزيز من آيات الربوبية التي سيقت برهاناً على توحيد الإلهية. وحسبنا أن نعلم معظم السور المكية مليئة من هذه الآيات لمن تدبرها.

وأما الأحاديث فهي أيضاً كثيرة مستفيضة، مثل قوله ﷺ في سيد الإستغفار. «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وعلى عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ففي هذا إقرار العبد واعترافه بأن الله هو ربه الذي لا رب له غيره وأنه لا معبود بحق في الوجود كله سواه فانه هو الذي خلقه وسواه ثم يعاهده بأنه سيظل قائماً على عهده ووعده ما استطاع إلى **ذلك سبيلاً ثم** يلتجىء ويحتمي به من شر ماجنى على نفسه ثم يبوء ويرجع إليه بسبب إنعامه عليه ثم يرجع إليه من ذنبه طالباً أن يغفره له لأنه هو الغفور الرحيم.

الصراع القائم بحقوق الحق والخلق

ومثل قوله «اللهم رب السموات السبع والأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شي **وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت** الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء أقض عني الدين واغنني من الفقر.

ومثل قوله «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، ونكتفي بهذا القدر وننتقل إلى بيان النوع الثالث والأهم وهو:

توحيد الإلهية

ومعناه إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده. فإن الإلهية **نسبة إلى الإله بمعنى** المعبود: يقال أله يأله إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد عبادة، قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: اللّه ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين.

والإله اسم للمعبود مطلقاً بحق أو بغير حق، فهو يطلق على **اللّه عز وجل** كما يطلق على غيره من المعبودات الباطلة وجمعه آلهة وأما اللّه فمختص بالمعبود بحق لا يطلق على غيره، فهو يشبه أن يكون علماً عليه. وإن كان الصحيح أنه مشتق كما قدمنا.

وقد ذكرنا فيما سبق أن توحيد الإلهية هو المقصد الأعظمُ من بعثة الرسل عليهمُ الصلاة والسلام، وذلكَ لأنه هو الذي وقعَ فيه النزاعُ بينَ الرسل وبين أممهم كما حكى ذلك القرآنُ الكريم.

فالمشركونَ من كل أمةٍ كانوا يتخذونَ من دون اللّه أنداداً يشركونهم باللّهِ في العبادة ويعتقدونَ أن لهم حقاً فيها مع اللّهِ عز وجل. وكانوا يعبدونهم على جهة التقرب بهم إلى اللّه، واتخاذهم وسائط وشفعاء عنده زعماً منهم أنه لا تُقضى لهم حاجةً ولا يسمع لهم دعاءً ولا تُفَتح لهم أبوابَ السماء إلا بشفاعةِ هؤلاء الوسطاء.

يقول شارح الطحاوية في بيان منزلة توحيد الإلهية.

(أعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى اللّه).

قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا** نوحاً إلى قومه فقال يا قوم أعبدوا اللّه مالكم من إله غيره﴾[1].

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩.

وقال هود عليه السلام لقومه ﴿اعبدوا اللّه مالكم من إله غيره﴾ [1].
وقال صالح عليه السلام لقومه ﴿اعبدوا اللّه مالكم من إله غيره﴾.
وقال شعيب عليه السلام لقومه ﴿اعبدوا اللّه مالكم من إله غيره﴾.

وقال تعالى﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت﴾ [2].

وقال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلكّ من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [3].

وقال ﷺ «أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهدَوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسولُ اللّه».

ولهذا كان الصحيحُ أن أولَ واجبٍ على المكلف شهادةِ أن لا إله إلا اللّه لا النظرِ ولا القصد إلى النظر **ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم** متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، إلى أن يقول:

فالتوحيد أول الأمر وآخره، أعني توحيد الالهية.

أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية

يسلكُ القرآن الكريمِ إلى هذا المطلب الأعظم أساليب متعددة أهمها ما أشرنا إليه آنفاً من سوق آيات الربوبية في الخلق والتدبير. والملك والحفظ والرعاية والإحسان والرحمة؛ وجعل ذلك دليلاً على الوحدة في الإلهية، وقد ذكرنا فيما سبق جملة من الآيات **المبينة لهذا المسلك.**

ومنها التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون اللّه وإظهار حالها من العجز

---

(١) سورة الإعراف الآية ٥٩.
(٢) سورة النحل الآية ٣٦.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

الشنيع والفقر البالغ، والغفلة عمن يدعوها ويفزع إليها كقوله تعالى من آخر سورة الأنفال ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون: وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون، إن الذين تدعون من دون اللّه عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين: ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ (١).

وكقوله سبحانه من سورة النحل: ﴿والذين يدعون من دون اللّه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾ (٢).

وكقوله من هذه السورة نفسها ﴿ويعبدون من دون اللّه مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ (٣).

وكقوله من سورة بني إسرائيل ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ (٤).

وكقوله تعالى من سورة طه في شأن من عبدوا العجل من بني إسرائيل ﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ (٥).

وكقوله من سورة الأنبياء ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ (٦) أي يعانون.

وكقوله تعالى من سورة الحج: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن

---

(١) سورة الاعراف الآيات ١٩١ - ١٩٥.
(٢) سورة النحل الآيتان ٢٠ - ٢١.
(٣) سورة النحل الآية ٧٣.
(٤) سورة الإسراء الآية ٥٦.
(٥) سورة طه الآية ٨٩.
(٦) سورة الأنبياء الآية ٤٣.

الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ (١).

وكقوله تعالى من سورة العنكبوت ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أو ثاناً وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ (٢).

وكقوله من سورة سبأ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ (٣).

وكقوله من سورة فاطر ﴿ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ (٤).

وكقوله من سورة يس ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون، أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾ (٥).

وكقوله من سورة الزمر ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره، أو أرادني برحمة هل ممسكات رحمته﴾ (٦).

وكقوله من سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في

---

(١) سورة الحج الآية ٧٣.
(٢) سورة العنكبوت الآية ١٦.
(٣) سورة سبأ الآية ٢٢.
(٤) سورة فاطر الآية ١٣.
(٥) سورة يسٓ الآية ٢٢.
(٦) سورة الزمر الآية ٣٨.

الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله ،وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾[1].

وكقوله من سورة الأحقاف ﴿قـل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا **خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات:** أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[2].

(١) حال المعبودين

ففي هذه الآيات السابقة كلها بيان شاف لحال هذه الآلهة الباطلة من العجز والمهانة حتى إنها أقل شأناً من عابديها لا تملك ما يملكون من أسماع وأبصار وقوى الغقل والإرادة والبيان، فكيف إذاً تصلح للإلهية.

(٢) حال العابدين

ومنها التشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ورميهم بالضلال والسفه حيث رضوا لأنفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولا تغنى شفاعته عنهم شيئاً، وذلك مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في خطابه لقومه:﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[3].

وقوله لهم في مكان آخر: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾[4].

ومثل قوله من سورة الرعد ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه **وما هو ببالغه وما دعاء** الكافرين إلا في ضلال﴾[5] فشبه في هذه الآية حال الداعين لغير الله في ضياع دعائهم وعدم حصولهم منه على طائل **بحال من جلس** على نهر وهو ظمآن

---

(١) سورة المؤمن الآيات ٤١ ـ ٤٣.
(٢) سورة الأحقاف الآيات ٤ ـ ٦.
(٣) سورة الانبياء الآية ٦٧.
(٤) سورة الانبياء الآية ٥٤.
(٥) سورة الرعد الآية ١٤.

فبسط كفيه على صفحة الماء طامعاً أن يبلغ الماء فاه وليس الماء ببالغ فاه أبداً حتى يغترف منه بيده فكذلك هؤلاء لا يستجابُ دعاؤهم أبداً.

ومثل قوله من سورة الأحقاف ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون اللّه من **لايستجيب له إلى يوم القيامة** وهم عن دعائهم غافلون ﴾[1].

(٣) مابين العابدين المعبودين يوم القيامة

ومنها تصوير ما سيكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة وتنصل المعبودين من جناية هؤلاء العابدين وإنكارهم أن يكون لهم يد في إضلالهم وشركهم.

وذلك مثل قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ومن الناس من يتخذ من دون اللّه أنداداً يحبونهم كحب اللّه والذين آمنوا أشد حباً للّه ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة للّه جميعاً وأن اللّه شديد العذاب. إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا. كذلك يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[2]

ومثل قوله من سورة المائدة﴿وإذ قال اللّه ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون اللّه قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم مافي نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا اللّه ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[3].

---

(١) سورة الأحقاف الآية٥.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٦٥ - ١٦٧.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦.

ومثل قوله من سورة الأعراف: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا: ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ (1).

ومثل قوله من سورة يونس عليه السلام ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤهم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون. فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين، هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (2).

ومثل قوله من سورة سبأ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون، فاليوم لا يملك بعضهم لبعض نفعاً ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النّار التيَ كنتم بها تكذبون﴾ (3).

ومنها بيان انفراده سبحانه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا يكون إلهاً من اتصف بها: وذلك لأن الإله يجب **أن يكون** كاملاً حائزاً لجميع صفات الكمال: فإن النقص مناف للإلهية، فإذا ثبت اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء والصفات دل ذلك على تفرده بالإلهية.

وذلك مثل قوله تعالى من سورة البقرة ﴿وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ (4) «وأعظم سورة في القرآن هي الحمد لله رب العالمين هي السبع

---

(1) سورة الأعراف الآيتان ٣٧ - ٣٨.
(2) سورة يونس الآيات ٢٨ - ٣٠.
(3) سورة سبأ الآيات ٤٠ - ٤٢.
(4) سورة البقرة الآية ١٦٣.

المثاني والقرآن العظيم الذي أثبتُه » الخ..

وقوله في آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيومُ لا تَأخُذُهُ سنةٌ ولا نومٌ له ما في السمواتِ ومافي الارضِ . من ذا الذي يشفعُ عندهُ إلا بإذنهِ، يَعلمُ ما بينَ أيديهم وما خلفهم ولايُحيطُون بشيءٍ من علمهِ إلا بما شاءَ وسع كرسيَّهُ السمواتِ والأرضِ ولاَ يؤُدَه حفِظُهما وهو العلي العظيم﴾ [1].

وقوله في آخر سورة الحشر ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾ [2].

وقوله من أول سورة طه ﴿الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ [3] وقوله من سورة سبأ ﴿قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم﴾ [4]

كيف نحقق توحيد الإلهية

علماً فيما **سبق** أن توحيد الربوبية وحده لا يكفي لتحقيق معنى التوحيد المطلوب شرعاً، وأن **العبدَ لا يكون موحداً** التوحيد الذي ينجي صاحبه في الدنيا من عذاب القتل والأسر، وفي الآخرة من عذاب النار بمجرد اعتقاده أن الله هو رب كل شي وخالقه ومليكه وأنه المدبر للأمور جميعاً، فإن مثل هذا التوحيد **كان يقر به المشركون الذين أمر الرسول ﷺ بقتالهم، بل** لا بد مع ذلك من توحيد الإلهية الذي هو الغاية العظمى من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام والذي من أجله خلق الله الخلق وجعل الجنة والنار وفرق الناس إلى شقي وسعيد.

---

(1) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(2) سورة الحشر الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.

(3) سورة طه الآيات ٥ ـ ٨.

(4) سورة سبأ الآية ٢٧.

وحينئذ يكون من المهم **جداً أن نعرف العناصر التي يتحقق** بها هذا التوحيد **والتي إن توفرت** للشخص كان توحيده كاملاً.

غاية توحيد الإلهية

وإذا كان توحيد الإلّهية يقوم كما ذكرنا آنفاً على صرف جميع العبادات للّه والإخلاص له فيها بغير **شائبة توجه بشي منها** إلى غيره أصلاً، فلا بد إذاً من معرفة أنواع العبادات، **التي تعبدنا** اللّه عز وجل بها في العقائد والأقوال والأعمال التي يحبها ويرضاها والتي أمرنا أن نتقرب إليه بها، فإن بعض هذه الأمور قد التبس على كثير من الناس فلم يفقهوا معنى التعبد فيها فتوجهوا بها إلى غير اللّه عز وجل دون أن يشعروا بخطر ذلك على دينهم، وانخلاعهم به من ربقة الإسلام.

«أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»

والعبادات على كثرتها وانتشارها ترجع إلى أربعة أنواع:

(١) عبادات قلبية مناطها القلب.

(٢)عبادات قولية تتعلق باللسان.

(٣) عبادات عملية تعمل بالجوارح.

(٤) عبادات مالية تتعلق بالأموال. (معاملات).

ونأخذ إن شاء الله في بيان أصول العبادات التي ترجع إلى كل واحد من هذه الأنواع.

العبادات القلبية

هي التي ترجع إلى عمل القلب وحده، وهي أهم أنواع العبادات وتعتبر أساسا لما وراءها من العبادات القولية والعملية.

فمنها الحب: قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً

يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ [1].

قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية «أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن أتخذ من دون الله أنداداً فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية.

فإنّ أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض لا يثبت هذا الند بخلاف ند المحبة؛ فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم.

وقال تعالى ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [2] **فجعل** علامة حبهم لله أن يتابعوا رسوله ﷺ ويكون هواهم تابعاً لما جاء به. **ووعدهم على ذلك حبه لهم ومغفرته** لذنوبهم. وإذا كان الحب عبادة، بل هو أساس العبادات كلها، إذ لا يصح شيء منها إلا مع كمال الحب وكمال الذل، فلا يصح أن يحب العبد **مع الله أحداً**، فإن هذا من اتخاذ الأنداد التي صرحت به آية البقرة، بل يحب في الله ولله.

وبهذا يظهر أن حب غير الله لا ينافي التوحيد، بل قد يكون من كمال التوحيد: فإن من تمام حب العبد لله أن يحب في اللهِ ويبغض في الله، ويوالي في الله ويعادي في الله، ويحب ما يحبه الله ويرضاه من الأشخاص والأخلاق والأعمال. ويبغض ما يبغضه الله كذلك.

ولهذا لا يكمل إيمان أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، وحتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فيؤثر مرضاتهما على مرضاة كل أحد. ويقدم أمرهما وحكمهما على أمر كل أحد وحكمه.

وبالجملة فيجب التمييز بين المحبة في الله ولأجله التي هي من كمال التوحيد

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥. (٢) سورة آل عمران الآية ٣١.

وتمام الاخلاص، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق بقلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده » اهـ.

وينبغي **أن يعلم ان الحب الذي،** هو عبادة إنما هو الحب الذي يقوم على الأختيار والتعقل والذي يحمل على إيثار مرضاة الله عز وجل وطاعته على هوى النفس وعلى كل ما هنالك من مال وأهل وولد وأما ذلك الحب الغريزي الذي نشعر به نحو أبنائنا وزوجاتنا مثلا فهو لا يتعارض مع ذلك الحب الديني الذي يجب أن يكون خالصاً لله إلا إذا غلا ذلك الحب[1] فَحمل على تقديم رضى هؤلاء على رضى الله عز وجل أو شغل عن طاعته وألهى عن ذكره.

ومنها الخوف:

وهو من أهم العبادات، قال تعالى ﴿فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين﴾[2].

وقال ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾[3].

وقال ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[4].

وقال ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾[5] وقال ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا[6] وإياي فاتقون﴾[7].

وقال ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾[8].

إلى غير ذلك من الآيات التي تفيد أن أعبد الناس لله وأكملهم به إيماناً أخوفهم من الله **وأشدهم له خشية ومن هنا يعلم ضلال من** زعم من الصوفية

---

(١) لأنه حب في الأصل مأمور به وإن كان حب العبد لهم حباً في الله فقد جعل حبهم شرعياً.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٥.

(٣) سورة التوبة الآية ١٣.

(٤) سورة الرحمن الآية ٤٦.

(٥) سورة النازعات الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

(٦) سورة المائدة الآية ٤٤.

(٧) سورة البقرة الآية ٤١.

(٨) سورة النور الآية ٥٢.

أنه لا يعبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته؛ كما يذكرون ذلك عن رابعة العدوية وغيرها، فإن الله أمرنا أن ندعوه خوفاً وطمعاً، ومدح عباده الصالحين بأنهم **يدعونه رغباً ورهباً وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه؛ ولكن ينبغي أن لا يفهم** من كون الخوف عبادة أن كل خوف من غير الله يكون شركا؛ فإن هناك خوفا جبلياً يقع في النفس عند توقع خطر على الحياة أو تعرض لألم أو نحو ذلك؛ وقد خاف الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم أكمل الناس توحيداً فهذا إبراهيم خليل الرحمن لما جاءته الرسل ببشارة الله عز وجل وقدم إليهم العجل ورأى أيديهم لا تمتد اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ولم يذهب روعه إلا بعد أن عرفوه بأنفسهم وقالوا له لا تخف وهذا موسى كليم الله لما قتل المصري حين استغاثه الإسرائيلي عليه أصبح في المدينة خائفا يترقب.

ولما جاءه رجل من أقصى المدينة يسعى يخبره بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه خرج منها خائفاً يترقب.

ولما أمره الله أن يلقي عصاه ورآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب حتى قال له الله عز وجل يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين.

ولما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم حتى ملأوا بها الوادي أوجس في نفسه خيفة، حتى قال الله له لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق مافي يمينك تلقف ما صنعوا.

وَهذا داود عليه السلام لما تسور عليه الخصوم المحراب ودخلوا عليه على حين غفلة من الحراس فزع منهم حتى رأوا أمارات الخوف عليه، فقالوا لا تخف: وأخبروه أنهم لم يأتوا بشر؛ وإنما جاءوه متحاكمين إليه.

ولكن الخوف الذي هو عبادة ما كان ناشئاً عن معرفة صحيحة بالله عز وجل وماله من صفات الجلال والقهر التي تملأ جو النفس برهبة لا حد لها وتحملها على المسارعة في مرضاته وتجنب مساخطه وإنه لا شيء كالخوف يسلط على النفس فيكسر من غرورها ويشحذ من همتها ويسوقها في سيرها إلى الله

سوقاً عنيفاً حتى لا تركن إلى غفلة أو فتور.

ولكن ينبغي أن لا يفرط **الخوف فينقلب يأساً وقنوطاً**، بل يجب أن يكون مصحوباً بالرجاء والأمل وحسن الظن بالله عز وجل وما أحسن قول بعض السلف، «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ولكن المؤمن من يجمع بين الحب والخوف والرجاء».

ومنها الإخلاص:

وهو أن يقصد الإنسان **بقوله وعمله وجهاده وجه الله** وابتغاء مرضاته من غير نظر إلى مغنم أو جاه **أو لقب أو أن يقول عنه** الناس إنه محسن او شجاع أو نحو ذلك فإن ذلك رياء يحبط العمل ويفسده، والإخلاص هو أساس العبادة، فإن العبادات كلها لا تكون مقبولة ولا معتداً بها إلا إذا توافر لها شرطان:

(١) أحدهما باطن، وهو إخلاص النية فيها لله عز وجل، بحيث لا يقصد بها **إلا وجه** الله والدار الآخرة.

(٢) والآخر ظاهر وهو المتابعة فيها للشرع ومجيئها وفق ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقص.

فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم تصح العبادة، فإنها إن خلت من الإخلاص كانت رياء، وهو الشرك الأصغر، وإن خلت من المتابعة كانت إبتداعاً.

ولهذا كان الإخلاص ميزان الأعمال كلها وعلى قدر توفره في العمل يكون الثواب كما قال ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

ومنها التوكل:

وحقيقته الثقة بكفاية الله وحسن تدبيره والاعتماد بالكلية عليه وتفويض الأمور كلها إليه والاستعانة به فيها مع الإيمان بقضائه وقدره **والاعتقاد بأن ما شاء كان وما لم يشأ** لم يكن، ومع الأخذ في الأسباب التي جعلها الله موصلة بحكمته إلى مسبباتها والسعي فيما لا بد منه مما يدخل تحت مقدور العبد وتوقي أسباب الشرور والهلكة وأخذ الحذر مما قد يصيب الإنسان بسبب غرته وتهاونه.

فالتوكل لا يقوم على إهمال الأسباب ولكن يقوم على إعمالها واحترامها فإن كونها **أسبابا إنما هو بمشيئة الله وحكمته**، ومن هنا يعلم أن ما يدعيه الجهلة من المتصوفة وغيرهم من أن الأخذ في الأسباب ينافي التوكل وأن كمال التوكل في القعود وترك العمل هو جهل بحقيقة التوكل، وهو أجدر أن يسمى عجزا وتواكلا.

ولقد كان فهم التوكل بهذا المعنى الصوفي الأحمق سببا كبيراً في تأخر المسلمين وانحطاطهم في العصور الوسطى التي فشا فيها الجهل والتقليد وراج فيها الدجل الصوفي الخبيث.

وقد ورد الأمر بالتوكل في كثير من الآيات والأحاديث وجعل شقيق العبادة وعلامة كبرى على صدق الإيمان ففي سورة الفاتحة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ والاستعانة هي التوكل.

وفي سورة هود عليه السلام ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه﴾ (١).

وفي سورة آل عمران ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (٢).

---

(١) سورة هود الآية ١٢٣.
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٦٠ و ١٥٩ و ١٧٣.

وفي سورة المائدة: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهـم البـاب فـإذا دخلتمـوه فـإنكـم غـالبـون وعلى الله فتـوكلـوا إن كنتم مؤمنين﴾ [1].

وفي سورة يونس جاء على لسان موسى عليه السلام في خطابه لقومه: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [2].

وفي سورة ابراهيم جاء على لسان الرسل عليهم السلام في خطابهم لقومهم: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ [3].

وفي سورة الزمر: ﴿قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾ [4] ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾ [5].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب ولا عذاب فقيل من هم يا رسول الله؟ قال هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون».

وفي الحديث الآخر: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

ومنها الصبر:

وحقيقته حبس النفس على ما تكره مما فيه مشقة أو ألم إنتظارا لموعود الله عز وجل وهو إما صبر على طاعة الله والقيام بأوامره وهو أعلى أنواع الصبر وإما صبر عن محارم الله عز وجل وكف النفس عنها وإما صبر على المصيبة والتسليم فيها لقضاء الله وقدره ومن هنا كان الصبر لازما للعبد في **كل أحواله** وكان نظام العبادات كلها لا قيام لها **بدونه ولهذا ورد أنه من الإيمان بمنزلة** الرأس

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٣.
(٢) سورة يونس الآية ٨٤.
(٣) سورة ابراهيم الآية ١٢.
(٤) سورة الزمر الآية ٣٨.
(٥) سورة الزمر ٣٦.

من الجسد وأن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر وورد من الآيات والأحاديث في الأمر به والحث عليه ما لا يمكن حصره ولكنا نشير إلى بعضه .

ففي سورة البقرة : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [١] .

﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [٢] .

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [٣] . وفي سورة آل عمران : ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ [٤] .

فجعل مع التقوى شرطين لحصول النصر والإمداد بالملائكة .

وفي سورة الأنفال : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [٥]

وفي سورة هود عليه السلام : ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ [٦] .

وفي سورة الرعد ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ [٧] .

وفي سورة الزمر : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [٨]

وفي سورة البلد : ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة﴾ [٩] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٣ .
(٢) سورة البقرة الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٢ .
(٥) سورة الأنفال الآية ٤٦ .
(٦) سورة هود الآية ١١ .
(٧) سورة الرعد الآية ٢٢ .
(٨) سورة الزمر الآية ١٠ .
(٩) سورة البلد الآيتان ١٧ ـ ١٨ .

وفي سورة العصر: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [1].

وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

وفي الحديث الآخر: «ما اعطي أحد عطاء خيرا ولا أوسع من الصبر» وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا).

ومن العبادات القلبية كذلك التوبة والإنابة والإخبات والاستكانة والذل والضراعة والرغبة والرهبة والإجلال والتعظيم والرضا والتسليم، وغير ذلك من معاني القلوب التي تعبدنا الله عز وجل بها وأمرنا أن نتقرب إليه بها، وأن نخصه بها، وجعلها علامة من علامات الإيمان وخلقاً من أخلاق المتقين.

العبادات القولية

ونعني بها كما قدمنا العبادات التي تتعلق باللسان وهي كثيرة جدا ونذكر هنا أهمها ليكون أنموذجا لما دونه.

فمنها الدعاء: وهو قسمان:

١ ـ دعاء ثناء وهو أن يذكر الله سبحانه بأسمائه الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها غير مقترن ذلك بطلب حاجة من رزق أو هداية أو غفران ذنب أو نحو ذلك، «وإنما يقصد به مجرد الثناء عليه بما هو أهله كقولك مثلا يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام» اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

---

(١) سورة العصر الآية كلها.

اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض وما فيهن..

ولا شك أن هذا النوع من الدعاء محض عبادة ويشبه أن يكون هو المقصود بمثل قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعـوني استجب لكم﴾ [1] لقوله سبحانه بعد ذلك ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [2].

وفي الحديث (الدعاء هو العبادة) وفي رواية « الدعاء مخ العبادة ».

٢ ـ والثاني دعاء سؤال وطلب وهو أن يسأل الله بأسمائه وصفاته حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة. كأن يسأله الهداية أو النصر أو سعة الرزق أو غفران الذنب او قضاء الدين الخ.

ولعل هذا النوع من الدعاء هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [3] ومعنى تضرعا تذللا وهو أن يشعر الداعي بحاجته وفقره إلى الله ومعنى خفية سر ومخافته فهو أحب إلى الله من دعاء الجهر كما قال سبحانه عن زكريا عليه السلام.

وقوله في سورة البقرة: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ [4].

وهذا النوع هو عبادة أيضاً، فإنه يقتضي ذل السائل وضراعته ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا﴾ [5] وفي الحديث (أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ولكن تدعون سميعا بصيرا) وشعوره بالحاجة والفقر إلى من يسأله- كما يقتضي من الجهة الأخرى غنى المسئول وقدرته وجوده وكرمه وفضله ورحمته

---

(١) سورة المؤمن الآية ٦٠.

(٢) سورة المؤمن (غافر) الآية ٦٠.

(٣) سورة الأعراف الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٦.

(٥) سورة مريم الآية ٣.

وغير ذلك من الصفات التي تجعله أهلا لأن يلقى السائل عند حوائجه ويضرع إليه في قضائها.

فهذا النوع فيه من الرجاء والخشية، والرغبة والرهبة، والذل والعجز، والضراعة والاستكانة ما يجلعه عبادة من أعظم العبادات ولهذا ورد الحث عليه في كثير من الآيات والأحاديث، وقد ورد في هذا الباب من الأدعية المأثورة في كل مقام ما يناسبه، وفيها غنية لمن يريد الدعاء عن هذه الأدعية الشركية المبتدعة التي تمتليء بها كتب الصوفية، والتي يسمونها أوراداً ويريدون بها أن يصرفوا الناس عن أدعية الكتاب والسنة ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في الأدعية المأثورة تسمى (الكلم الطيب) ولتلميذه الإمام ابن القيم كذلك رسالة تسمى (الوابل الصيب من الكلم الطيب).

٢ - ومنها الذكر:

وحقيقته حضور المذكور في قلب الذاكر على أي نحو من الأنحاء الثابتة له، ثم التعبير عن ذلك باللسان وضده الغفلة والنسيان والذكر هو أفضل العبادات، بل هو الغرض المقصود من العبادات كلها، فإنها ما شرعت إلا لتعين على ذكر الله عز وجل قال تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ (١).

وقال: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ (٢) وفي الحديث المتفق عليه: (الا أخبركم بخير أعمالكم وأرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ومن أن تلقوا أعداءكم وتضربوا أعناقهم وتضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل.

وقد وعد الله عز وجل بذكر من يذكره كما توعد بنسيان من ينساه. قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ (٣).

---

(١) سورة طه الآية ١٤. (٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥. (٣) سورة البقرة الآية ١٥٢.

وقال: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم؛ أولئك هم الفاسقون﴾ (١).

وقال في شأن المنافقين: ﴿نسوا اللّه فنسيهم﴾ (٢).

وفي الحديث القدسي يقول اللّه تعالى: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، وأنا جليس من ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ وإن ذكرته في ملأ خير من ملأه».

ولا يمكن إحصاء ما ورد في فضل الذكر من الآيات والأحاديث غير أن الذي نريد أن ننبه عليه هو مراعاة الآداب التي شرعها اللّه عز وجل وسنها رسوله ﷺ للذاكرين. وجماع هذه الآداب قول اللّه تعالى من سورة الأعراف في آخرها: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ (٣).

فقد أرشدت الآية الكريمة إلى وجوب أن يكون الذكر مخافة مع التذلل والخشية، فلا يرفع صوته به، ولا يذكر اللّه بأطراف لسانه مع قسوة القلب وغفلته. وفي الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال لأصحابه حين سمعهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل والدعاء: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

وقد أمرنا اللّه عز وجل أن نذكره على كل حال، فقال: ﴿الذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ (٤).

وليس المراد من ذلك ما يفهمه الجاهلون من أنهم يقومون للذكر أو يقعدون له أو يضطجعون، بل المراد أنهم يذكرون اللّه كيفما كانوا من قيام أو قعود أو

---

(١) سورة الحشر الآية ١٩.
(٢) سورة التوبة الآية ٦٧.
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٥.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٩١.

أضطجاع دون أن يتكلفوا شيئاً من ذلك.

والذكر يكون بكل مامن شأنه أن يذكر العبد بالله من أسمائه وصفاته وأفعاله كسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقراءة القرآن أفضل الذكر، فهي جلاء القلوب وربيعها ونور الصدور وشفاؤها، وفي الحديث «ما تقرب العبد إلى الله بشيء أحب إليه مما خرج منه» يعني القرآن.

وقال عليه السلام: «أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله».

وقال: الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض.

والإستغفار كذلك من أفضل الذكر، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام، ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ الآيات.

وفي الحديث: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة».

ومنها التسمية:

وهو أن تبدأ الأقوال والأعمال ذات الشأن بذكر اسمه سبحانه وحده استعانة به وتبركاً، فلا يصح أن تبدأ بذكر غيره ولا أن يذكر اسم غيره معه بالواو، فلا يقال باسم فلان ولا باسم الله وفلان.

وقد علمنا الله كيف نبتدىء أمورنا كلها بذكر اسمه، فابتدأ كتابه العزيز بتلك الآية العظيمة «بسم الله الرحمن الرحيم».

وجعلها في ابتداء كل سورة منه اللهم إلا سورة التوبة، لأنها نزلت بالعذاب والفضيحة للمنافقين. وقيل لأنها جعلت هي والأنفال كسورة واحدة فلم يفصل بينهما بالتسمية.

وقد نهانا سبحانه أن نأكل مما أهل به لغيره، وهو ما رفع الصوت عند ذبحه باسم غير اللّه أو قصد التقرب بذبحه إلى غير اللّه.

وكذلك نهاناأن نأكل مما لم يذكر اسم اللّه عليه، بأن تركت التسمية عليه عمداً. قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه وإنه لفسق﴾ خلافاً للشافعي رحمه اللّه، فقد حمل هذا على ما أهل به لغير اللّه. وعنده أن ذبيحة المسلم تؤكل، وإن ترك التسمية عليه عمداً، وهو مخالف لظاهر الآية.

وقد ذكر العلماء أن تقديم الجار والمجرور في بسم اللّه، وتقدير العامل مؤخراً إشعار باختصاص اسم اللّه سبحانه بكونه مبتدأ به كأن القارىء أو الكاتب مثلاً يقول: باسم اللّه وحده أقرأ أو أكتب. وفي الحديث الصحيح: (كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه ببسم اللّه الرحمن الرحيم فهو أبتر أو أقطع أو أجذم) والمعنى أنه ناقص وقليل البركة.

ومنها الإستعاذة

وهي طلب العوذ، يقال عاذ به يعوذ عوذاً، يعني التجأ إليه وتحصن به، ويقال استعاذ به كذلك يعني طلب حمايته.

وفي القرآن عن يوسف الصديق عليه السلام حين دعته امرأة العزيز إلى نفسها ﴿قال معاذ اللّه إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ [١] والمعنى أعوذ باللّه معاذاً، أي عوذاً. فهو مصدر ميمي منصوب على المفعول المطلق أي ألتجىء إلى اللّه وأحتمي به مما تدعيني إليه من الفاحشة.

وفي آية أخرى من نفس السورة: قال ﴿معاذ اللّه أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ [٢] يعني نعوذ باللّه أن نظلم أحداً فنأخذه بغير ذنب وإنما نأخذ المذنب وحده.

وقد أمرنا اللّه أن نستعيذ به عند قراءة القرآن، فقال من سورة النحل ﴿فإذا

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٣. (٢) سورة يوسف الآية ٧٩.

قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [1] والأمر للوجوب على الصحيح وأمر نبيه ﷺ أن يستعيذ به من همزات الشياطين وحضورها، فقال من سورة المؤمنون.

﴿وقل ربي أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ [2] وكان عليه السلام يستعيذ من همز الشيطان ونفخه ونفثه فقيل همزة الموت أي الجنون ونفخه الكبر ونفثه السحر.

وبالجملة لا يستعاذ إلا بالله عز وجل، فمن استعاذ بغيره فقد أشرك. قال تعالى في سورة الجن على لسان النفر الذين استمعوا إلى القرآن من الجن: ﴿وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ [3].

قال المفسرون في تفسير هذه الآية:

« إن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا أوى به المبيت في مكان موحش قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد من الجن، فلما رأت الجن أن الإنس يخافونهم ويعوذون بهم زادوهم رهقاً، أي إزعاجاً وخوفاً ».

وقد نهى الإسلام عن الرقى والتعويذات الشركية التي كان أهل الجاهلية يرقون بها؛ ووضع بدلها رقى كلها توحيد ودعاء خالص لله عز وجل.

كقوله عليه السلام: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) وكقوله في الرقية التي كان يرقى بها الحسن والحسين رضي الله عنهما « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة »

وكقوله للذي شكا إليه الوجع « ضع يمينك على موضع الوجع ثم سم الله سبعاً وقل: « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» وكقوله: (أذهب البأس رب الناس أشف وأنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً ».

(١) سورة النحل الآية ٩٨. (٢) سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ ـ ٩٨. (٣) سورة الجن الآية ٦.

ومنها الإستغاثة:

وهي طلب الغوث والنجدة، ولا يصح أن يستغاث بغير اللّه فيما لا يقدر عليه إلا اللّه فإن ذلك شرك.

قال ﷺ لمن جاءوا يستغيثون به من شر أحد المنافقين: « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث باللّه عز وجل ».

وقال تعالى إخباراً عن المؤمنين في استغاثتهم إياه ليلة بدر ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ [1].

وأما الإستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه فهذه ليست شركاً. قال تعالى خبراً عن موسى عليه السلام: ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ [2] يعني فاستغاثه الإسرائيلي الذي هو من قومه على المصري الذي هو من عدوه أي أعدائه.

وفي معنى الإستغاثة الإستجارة، وهي طلب الجوار والحماية، فلا يستجار إلا باللّه من عذابه وسخطه ومن شر خلقه، قال تعالى في سورة الجن: ﴿قل إني لن يجيرني من اللّه أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ [3].

وقال في سورة المؤمنون: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾ [4] وفي الحديث: (كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط أحد منهم علي وأن يبغي على عز جارك وجل ثناؤك لا إله إلا أنت.)

ومنها الحلف:

فلا يصح القسم إلا باللّه عز وجل أو بصفة من صفاته وفي الحديث: « من حلف بغير اللّه فقد كفر وأشرك ».

---

(١) سورة الانفال الآية ٩.

(٢) سورة القصص الآية ١٥.

(٣) سورة الجن الآية ٢٢.

(٤) سورةالمؤمنون الآية ٨٨.

وسمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «إن اللّه ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليذر».

وإنما كان الحلف كذلك لأنه تعظيم للمحلوف به، وهو لا ينبغي إلا لله، وفيه معنى إشهاد المحلوف به على صدق الحالف، وذلك الإشهاد لا يصح إلا بالنسبة لمن يعلم صدق الشيء المحلوف عليه أو كذبه وليس ذلك إلا لله عز وجل وحده كما أن المحلوف به يجب أن يكون ممن يملك عقاب الحالف به والإنتقام منه إذا حلف به كاذباً وذلك هو اللّه عز وجل وحده، ومما تقدم يعلم أن ما يجري على ألسنة العوام من دعاء لغير اللّه أو أستغاثة به أو غلو في مدحه أو استشفاع وتوسل به أو حلف باسمه أو طلب المدد والبركة منه كل ذلك شرك يجب على العلماء أن ينبهوا الناس إلى عظيم خطره وسوء عاقبته بدلاً من أن يلهوا عقولهم بذكر حكايات الصوفية كرابعة العدوية وغيرها.

العبادات البدنية

ونعني بها العبادات التي تؤدى بالجوارح وهي أيضاً كثيرة ومعلومة فأفضلها الصلاة بما فيها من قيام وقعود وركوع وسجود وقراءة وتسليم وهي الركن الثاني في الإسلام بعد الشهادتين. وقد أمر اللّه بإقامتها في آيات كثيرة ومدح الخاشعين فيها والمحافظين عليها كما توعد بالويل على تضييعها والسهو عنها.

ومنها الصيام الذي هو إمساك للّه عز وجل عن سائر المشتهيات والمفطرات طيلة اليوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ومنها الحج والعمرة بما يشتملان عليه من مناسك كالطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والمزدلفة ورمى الجمار وسوق الهدايا والحلق والتقصير وغير ذلك.

ومنها الجهاد بالنفس وما يقتضيه من بذل الجهد في مقاتلة أعداء اللّه

والتعرض للمخاطر واحتمال الآلام والجراحات والصبر على صليل السيوف وقراع الأبطال والمرابطة في الثغور والغربة عن الأهل والولد.

ومنها الرحلة في طلب العلم أو إلى أحد المساجد الثلاثة التي هي المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى وبالجملة فكل عبادة نيطت بالبدن أو بعضو منه فهي داخلة في هذا النوع من العبادات.

العبادات المالية

وهي التي تعبد الله عباده بها في أموالهم من الصدقات والذبائح والنذور.

فأهمها الزكاة المفروضة لمن وجبت عليه بأن بلغ عنده النصاب وحال عليه الحول.

وهي الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الصلاة، وقد قرنت بها في آيات كثيرة وورد الوعيد الشديد على ما نعيها كقوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ (١).

وقد ورد في الحديث أن المال الذي لم تؤد زكاته يجعل يوم القيامة شجاعاً أقرع يطوق به عنق صاحبه فينهشه ويلدغه.

وقال تعالى من سورة التوبة: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (٢).

يعني أن المال الذي لم تؤد زكاته يجعل صفائح يوم القيامة يحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جبين صاحبه وجنبه وظهره ويقال له ذوق ما كنت تكنز.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٠ (٢) سورة التوبة الآية ٣٤.

ومنها صدقات التطوع وهي من أحب العبادات إلى الله وقد ورد الحث عليها في كثير من الآيات والأحاديث وسماها الله عز وجل قرضاً ووعد بالمضاعفة عليها إلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك لمن يشاء.

وفي سورتي البقرة وآل عمران اللتين هما الزهراوان من الترغيب في الإنفاق والبذل ما يستدر يد الشحيح ويهون عليه كل عطاء قال تعالى من سورة البقرة: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [١].

وقال من السورة نفسها: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيخ ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ [٢].

وقال أيضاً: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعلمون بصير﴾.

وقال سبحانه من سورة آل عمران: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وماتنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ [٣].

وقال منها أيضاً: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء إلخ الآيات.﴾.

وقال عليه السلام في حديث معاذ: «الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار»، وجعل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه».

ومنها النذر وهو ليس بواجب في الإبتداء بل ورد النهي عنه قال عليه السلام: (لا تنذروا فإن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره وإنما يستخرج به من البخيل).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٢.

ولكنه إذا نذر لزمه الوفاء بشرط أن يكون النذر في طاعة وفيما يملك الناذر. قال عليه السلام:

« لاوفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم » وقال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ».

والنذر حينئذ يكون قربة وعبادة يجب أن تكون خالصة لله عز وجل قال تعالى: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ (١) والأمر هنا للوجوب قطعاً.

وقال في مدح الأبرار من عباده: « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ».

وأما النذور التي يضعها الناس اليوم في صناديق أصحاب الأضرحة أو ما ينذرونه لهم من الحروث والأنعام التي يذبحونها لهم ويطعمونها الناس لأجلهم فإن الدافع إليها هو اعتقاد ناذريها أن هؤلاء الشيوخ قد وفوا لهم بما طلبوه منهم من شفاء أو نجاح أو إنجاب ولد أو نحو ذلك فهم يقدمون هذه النذور ثمناً لذلك.

ولا شك أن هذا شرك صريح حيث اعتقد أن غير الله عز وجل يملك شيئاً من هذه الأمور. ومن هنا كانت هذه النذور باطلة وشركاً يجب التنزه عنه كما جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً ببوانة فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال (هل كان فيها صنم من أصنام الجاهلية يعبد؟ فقيل لا فقال: هل كان فيها عيد من أعياد الجاهلية يقام؟ فقيل لا فقال للرجل فأوف بنذرك).

ومنها الذبح:

وهو أيضاً عبادة إذا تعلق بهدى أو أضحية أو نذر أو كفارة أو عقيقة أو نحو ذلك قال تعالى أمراً لنبيه ﷺ: « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ».

---

(١) سورة الحج الآية ٢٩.

فقرن في الآية بين النسك الذي هو الذبح وبين الصلاة في وجوب إخلاص كل منهما لله لأن كلا منهما عبادة يتقرب بها إلى الله.

وقال تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك انحر إن شانئك هو الأبتر﴾ [1] فأمر بالذبح بعد الصلاة.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم عيد الأضحى: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن ذبح قبل الصلاة فلا نسك له وإنما هو لحم قدمه لأهله».

وقد ورد الوعيد الشديد لمن ذبح لغير الله، قال عليه السلام: «لعن الله من ذبح لغير الله. لعن الله من لعن والديه، لعن الله من غير منار الأرض» ونكتفي بما قدمناه في بيان أنواع العبادات وننتقل إلى:

احتياط الشرع لتوحيد الإلهية

عرفنا أن توحيد الإلهية يقوم على إخلاص العبادة لله عز وجل وعدم الإشراك به في أي شيء من صورها التي قدمناها وفي غيرها مما لم نذكره إتكالاً على معرفته.

ولما كان هذا النوع من التوحيد - كما قدمنا - هو أخطر أنواع التوحيد وأشرفها، فقد احتاط له الشرع أعظم الحيطة، ونفى عنه كل شائبة شرك، وحرم كل وسيلة مفضية إلى الإخلال بقواعده حتى يبقى مصون الحمى بعيداً عن عوامل الزيغ والإنحراف.

فنهى عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الله وبين أحد من خلقه، كقولك مثلاً، أنا في حمى الله وفلان، أو أنا متوكل على الله وعلى فلان، أو ما شاء الله وفلان، وبين أن المخرج من ذلك هو أن يعطف بثم لا بالواو، فيقول

---

(١) سورة الكوثر كلها.

باسم الله ثم باسم فلان، وأنا في حمى الله ثم فلان إلخ، قال عليه السلام« لا يقولن أحدكم ما شاء الله وفلان، وليقل ما شاء الله ثم فلان » وذلك لأن العطف بالواو يقتضي المساواة بين المعطوف والمعطوف عليه بخلاف بثم فإنه يقتضي تأخر المعطوف في الرتبة عن المعطوف عليه.

وكذلك نهى عن الألفاظ التي فيها تعظيم لغير الله أو نسبة تأثير إليه، كقولك: وحياتك أو وحياة أبيك، أو لولا فلان لكان كذا ولولا صياح الديك مثلا أو نهيق الحمار لسرقنا اللصوص ونحو ذلك.

ونهى أيضاً عن اتخاذ المساجد على القبور لما أن ذلك قد يكون ذريعة إلى تعظيمها وعبادتها، وقد استفاض عنه ﷺ أنه قال: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لما في ذلك من التشبه بعبادها حيث يتحرون السجود لها في هذه الأوقات، قال عليه السلام: لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ».

ونهى عن شد الرحال إلى مكان من الأمكنة بقصد التقرب إلى الله بالعبادة فيه إلا الى المساجد الثلاثة التي هي المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى.

ونهى أن يقوم الناس بعضهم لبعض على جهة التعظيم. قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه حين رآهم قاموا له: « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ».

وصلى بهم مرة جالسا من وجع وصلوا وراءه قياما، فأشار إليهم أن اجلسوا، ثم قال لهم بعد أن فرغ من صلاته: « كدتم أن تفعلوا آنفاً فعل فارس بعظمائها، يجلس الرجل ويمثل الناس قياماً بين يديه ».

ونهى ﷺ أصحابه عن الغلو فيه والمبالغة في مدحه فقال: « لا تطروني كما

أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ».

وقال: (لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا علي حيثما كنتم).

وقال للوفد الذين قالوا له أنت سيدنا وابن سيدنا (إنما السيد الله).

وقال للرجل الذي قال له ما شاء الله وشئت: « أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده ».

وقال للرجل الذي دخل عليه فأخذته رعدة من هيبته« هون عليك فإنما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ».

ونهى عن إشراف القبور وتجصيصها وبناء القباب عليها وإيقادها بالسرج والعكوف عليها، خشية الافتتان بها والوقوع في تعظيمها.

وأنكر ﷺ على معاذ بن جبل رضي الله عنه حين دخل عليه فسجد له، وقال له: ما هذا يا معاذ؟ لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولكن لا ينبغي السجود إلا لله. ثم قال له: « أرأيت يا معاذ لو مررت على قبري أكنت ساجدا له؟ قال لا، قال لا تفعل».

ونهى عن الوفاء بالنذر إذا نذر في مكان يعبد فيه صنم أو يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية، فقد جاءه رجل فقال يا رسول الله إني نذرت أن أنحر إبلا « ببوانه » فسأل النبي ﷺ: هل كان في هذا المكان صنم من أصنام الجاهلية يعبد؟ فقيل لا، فسأل هل كان يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية؟ فقيل لا، فقال للرجل: « فأوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك ابن آدم ».

ولقد نهج الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم سنة نبيهم ﷺ في الحيطة للتوحيد والمحافظة على حماه المقدس، حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقطع شجرة الرضوان التي بايع الصحابة رسول الله ﷺ تحتها على

لموت عام الحديبية لما علم أن بعض الناس يذهبون إليها ويتعمدون الصلاة عندها.

وقال مرة وهو يستلم الحجر الأسود «اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك».

وعزل خالداً رضي الله عنه عن القيادة في وقت كانت الآمال كلها معلقة به ليتمم ما بدأه من الانتصارات على الروم، ولكنه خشي أن يفتتن به الناس فعزله وولى مكانة أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

وهذا علي رضي الله عنه يقول لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا صورة إلا طمستها».

وعلى هذا النهج الواضح من المحافظة على التوحيد سار السلف الصالح وأئمة الهدى من بعدهم لم يسمحوا لأحد أن يخرق سياج التوحيد او يستبيح بيضته، حتى نبتت طوائف الشيعة والمتصوفة فأعملوا فيه معاول هدمهم بغلوهم في أئمتهم وشيوخهم وتقديسهم للمشاهد والمزارات وتبركهم بالآثار والمخلفات وسجودهم على العتبات وتقديمهم النذور والقربانات.

وما زال الأمر يستفحل والخطر يشتد حتى وصل إلى ما نشاهده الآن في معظم بلاد الإسلام من إقامة القباب على القبور، وإنشاء المقاصير حولها وتزيينها بالزخارف وفرشها بالبسط، وإيقاد السرج عليها ووضع صناديق النذور عندها، وفتحها للزائرين والزائرات يحجون إليها ويرتكبون عندها كثيرا من الأعمال الشركية كالطواف والتقبيل ووضع النذور والتوسل والمناجاة وذبح القرابين وإقامة المهرجانات الجاهلية التي يسمونها (الموالد) إلى غير ذلك مما يئن منه الإسلام وتتفتت على صخرته كل قواعد التوحيد.

ولطالما هب الغيورون من علماء هذه الأمة وهداتها ناصحين لها بالإقلاع عن

هذه العادات الشركية ومنذرين لها بسوء العاقبة إن استمرت على هذه الحال، ولكن جهودهم كانت تضيع سدى، لأن قوى السلطان لا تسندها، وقد جاء في الأثر: « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » وليتها حتى وقفت على الحياد في ذلك الصراع المرير بين جند الرحمن وعسكر الشيطان بل انحازت بكل ثقلها إلى جحافل الشرك والطغيان واضطهدت كل داعية إلى التوحيد والإيمان.

الوان من الشرك

هناك صورة من الشرك يقع فيها كثير من الناس دون أن يفطنوا لها لخفائها عليهم، وسكوت العلماء عن بيانها لهم وتحذيرهم منها.

فمنها الرياء:

وهو أن يعمل الرجل العمل من صلاة أو صدقة أو حج أو جهاد لا يبتغي به وجه الله، ولكن ليراه الناس فيعظم في أعينهم ويعتقدوا فيه الطيبة والصلاح، فترى أحدهم يقوم في الصلاة فيزينها ويطيل فيها لما يرى من نظر الناس إليه. قال عليه السلام: « إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر، قيل وما هو يا رسول الله؟ قال الرياء ».

ومنها العطف على اسم الله عز وجل بما يوهم الندية، كقول القائل: باسم الله وفلان: أو أنا في حمى الله وفلان ونحو ذلك، فإن العطف بالواو هنا يفيد مساواة المعطوف للمعطوف عليه في الحكم، وتلك هي الندية المنهى عنها.

وقد جعل الشرع سبيلا إلى التخلص من ذلك بوضع ثم بدلا من الواو، فيقول: باسم الله ثم فلان، او أنا في حمى الله ثم فلان كما تقدم.

ومنها إسناد بعض الحوادث إلى غير الله عز وجل واعتقاد تأثيره فيها، كأن يقول مثلا: لولا وجود فلان لحصل كذا، ولولا يقظة الحارس لدهمنا الجيش إلى غير ذلك من الألفاظ التي تنسب بعض الحوادث إلى أسبابها القريبة، على أنها هي وحدها التي أدت إلى وقوعها.

وليس معنى ذلك نفي تأثير الأسباب في مسبباتها فإن ذلك جهل بحكمة الله الذي وضعها وجعلنا أسبابا بل المقصود الاعتقاد أن تأثيرها هو بمشيئة الله وحكمته لا أنها مستقلة بالتأثير.

ومنها التنجيم:

وهو الاستدلال بمطالع الكواكب أو غروبها على وقوع بعض الحوادث واعتقاد تأثيرها في العالم الأرضي، كقولهم إذا طلع نجم كذا أو غرب حصل كذا وكذا، وإذا كانت الشمس في برج الحمل مثلا حصل كذا وكذا إلى غير ذلك مما درج عليه أصحاب التقاويم، فلا يكاد يخلو تقديم منها من تذليل يذكر فيه صاحبه ما يتوقع من حوادث خلال هذا العام.

ومن العجيب أن الناس يصدقون بهذه التنبؤات كما لو كانت حقائق واقعة، ويبنون عليها كثيرا من تصرفاتهم ومعاملاتهم دون إنكار، حتى إن عالماً كان مدرساً بإحدى كليات الأزهر كان يصدر كل عام تقويماً يملأه بهذه الترهات، ويسجع فيه سجع الكهان ولم يتوجه إليه من إخوانه ولا من إدارة كليته ولا من إدارة الأزهر حتى مجرد اللوم، كأن الأمر لا يهم أحداً، هذا مع علمهم بمنافاة هذه التكهنات لبديهة من بداهة الإسلام، وهي أنه لا يعلم ما في غد إلا الله عز وجل وحده. وفي الحديث: (خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله) ثم تلا قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ (1) الآية.

وفي الصحيح عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل: فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما قال ربكم الليلة؟ قالوا الله ورسوله أعلم: قال «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

---

(1) سورة لقمان الآية ٣٤.

قال بعض العلماء: إذا قال القائل مطرنا بنجم كذا وكذا أو بنوء كذا فلا يخلو:

١ - إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر، فهذا شرك صريح، وهو الذي كان يعتقده أهل الجاهلية، كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ويدفع عنهم ضراً.

٢ - وإما أن يقول ذلك معتقدا أن المؤثر هو الله وحده ولكنه اجرى عادته بسقوط المطر عند سقوط ذلك النجم؛ فالصحيح أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، وقد روى مسلم عن أبي هريرة: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين. ينزل الله الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا».

وفيه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: أصبح من الناس شاكر وكافر، قالوا هذه رحمة الله، وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا» فنزلت هذه الآية: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [١] حتى بلغ ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [٢].

وروى البخاري في صحيحه عن قتادة قال «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها، فمن تأوّل فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم به».

ويقول الربيع بن زياد «والله ما جعل الله في نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته، إنما يفترون على الله الكذب ويتعللون بالنجوم».

وليس من هذا الباب طبعاً ما تتنبأ به المراصد الفلكية من أوقات الخسوف والكسوف ومدة وقوعها وكونه جزئياً أو كليا، فإن ذلك مبني على قواعد حسابية لا تخطيء، وكذلك ما تتنبا به هذه المراصد من درجات الحرارة أو

---

(١) سورة الواقعة الآية ٧٥.
(٢) سورة الواقعة الآية ٨٢.

الرطوبة وهبوب الرياح واتجاهاتها وكونها نشيطة أو غير نشيطة، ووجود فرصة لسقوط مطر ونحو ذلك، فإن هذه كلها من قبيل الأمارات التي تدل على قرب وقوع ما تبشر به كما قال تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا﴾ (١) فرؤية البرق تنذر بالمطر فيخاف المسافرون ويطمع الزراع.

وكما قال سبحانه: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ (٢) فالريح إذا هبت باردة وساقت السحب بين يديها استبشر الناس وترقبوا سقوط المطر.

ومنها السحر:

هو في اللغة كل ما لطف مأخذه وخفي سببه، ومنه الحديث (إن من البيان لسحرا).

والسحر حرام بالإجماع بل هو من أكبر الكبائر، قال عليه السلام: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات).

بل قال أصحاب أحمد رحمه الله إنه يكفر بتعلمه وتعليمه لقوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ (٣) فجعل مناط كفرهم هو تعليمهم السحر للناس.

وقال تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ (٤)

قال ابن عباس رضي الله عنهما أي نصيب، وقال قتادة في تفسيرها: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم أن الساحر لاحظ له في الآخرة. وقال الحسن رحمه الله أي ليس له دين فدلت الآية على مفارقة الساحر لدينه.

---

(١) سورة الرعد الآية ١٢.

(٢) سورة الاعراف الآية ٥٧.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٤) سورة البقرة الآية ١٠٢

وقد أباح بعض العلماء تعلم السحر لتوقيه ودفع ضرره كما قال الشاعر:

عـــرفـــت الشـــر لا للشـــر لكـــــن لتـــــوقيـــــه
ومــــن لا يعـــرف الشـــر مــــن النـــاس يقـــع فيـــه

ولكن الصحيح أنه حرام مطلقاً.

والسحر له حقيقة، وليس مجرد تخييل، فهو عزائم ورقى وعقد يؤثر بإذن الله في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجته قال تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجته﴾ [١] وقال: ﴿من شر النفاثات في العقد﴾ [٢] يعني السواحر اللاتي يعقدن العقد في سحرهن ثم ينفثن في عقدهن، فلولا أن السحر له حقيقة لم يأمر سبحانه بالاستعاذة منه.

وقد عد رسول الله ﷺ السحر من الكبائر وذكره بعد الإشراك للإشارة إلى أنه نوع منه وأن حكم الساحر حكم المشرك المرتد.

وفي الصحيح عن ابن مسعود: (من أتى كاهنا أو ساحرا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن عقد عقدة ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

وفي قوله تعالى في شأن الملكين اللذين نزلا ببابل: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ [٣] أبلغ إنذار وأوضح دليل على أن هذا ذنب من فعله يكون كافراً، وفيه دليل أيضاً على أن تعلم السحر كفر.

وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد؛ وبين من تعلمه ليكون ساحراً ومن تعلمه. ليقدر على دفعه كما قال ذلك أحمد رحمه الله.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٢.
(٢) سورة الفلق الآية ٤.
(٣) سورة البقرة الآية ١٠٢.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ [1] قال الجبت السحر والطاغوت الشيطان.

ويلحق بالسحر ما في معناه من العرافة والعيافة التي هي زجر الطير والطرق بالحصى وخط الرمل ونحو ذلك مما يدعى أصحابه أنهم يعلمون الغيب بواسطته قال الشاعر:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصا ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وعن حفصة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ (من أتى عرافاً فيسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) رواه مسلم.

وعن قطن بن قبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: (العيافة والطرق والطيرة من الجبت).

والطيرة هي التطير الذي يحصل في القلب عند سماع كلمة تنبيء عن وقوع شر أو رؤية منظر كذلك أو التشاؤم من بعض الأيام أو الأعداد أو الأسماء أو نحو ذلك.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه «الطيرة شرك قاله ثلاثا ثم قال وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل».

وهذا صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب بغير الله عز وجل.

قال في شرح السنن: (إنما جعل الطيرة شركا لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها فكأنهم أشركوا مع الله تعالى).

ومنها الغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين، والمبالغة في مدحهم والطواف حول

---

(١) سورة النساء الآية ٥١.

قبورهم والسجود عندها وطلب الحاجات منهم، واعتقاد أنهم أحياء في قبورهم يجيبون من دعاهم ويملكون التصرف والتأثير، إلى غير ذلك مما يفعله العامة وأشباههم من المثقفين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرسالة السنية «فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني وأغثني وارزقني وعافني أو أنا في حسبك وحفظك وحمايتك ورعايتك ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل.

فإن الله سبحانه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبدوه وحده لا شريك له ولا يدعو معه إلهاً».

وقال العلامة ابن قيم الجوزية «ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والاستعانة منهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً، فضلا لمن استغاث به واستعان منه أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده».

ولقد كان الغلو في المشايخ وأدعياء الولاية من الأحياء أو المقبورين أوسع باب دخلت منه هذه الأمة إلى مراتع الوثنية، فكلها إلا من عصم الله محترق بنار هذه الفتنة التي استطار شرها وعم ضررها حتى شملت الصغار والكبار والرجال والنساء، والعالم والجاهل، حتى أن إماماً من أئمتهم ألف في مدح رسول الله ﷺ قصيدة غلا فيها إلى حد أن يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول في بيت آخر:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وهذا جاهل آخر من جهلائهم يقول في أحمد البدوي الموجود بطنطا

كم أغنى محتاجا وأنجح قاصدا　　　كم صد ظلاماً وأطلق عاني
من مثله تسعى الوفود لحيه　　　كالحج أو كالبيت في الطوفان
إن تدعه صدقا أجاب بعزمه　　　بحر الفتوة معدن العرفان

الصلة بين أنواع التوحيد الثلاثة

بعد أن فرغنا من الكلام على حقيقة كل واحد من أنواع التوحيد الثلاثة التي هي توحيد الربوبية والإلهية والأسماء، يحسن بنا أن نعرف النسبة بينها. وهل هي متلازمة في الوجود بمعنى أن بعضها لا يوجد بدون الآخر أو غير متلازمة، وهل يغني اعتقاد بعضها فقط أم لا بد من اعتقاد جميعها.

فتوحيد الربوبية الذي يقوم ـ كما قدمنا ـ على اعتقاد أنه هو سبحانه رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه القائم على أمور عباده والكافل لها، والمربي لهم بنعمه المادية والروحية. هذا التوحيد مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة فهو منه كالمقدمة من النتيجة، فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له، فإنه لا يصح أن يعبد الا من كان رباً خالقاً مالكا مدبراً، وما دام ذلك له وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده، الذي لا يجوز أن يكون لأحد معه شركة في شيء من صور العبادة كلها. ولهذا جرت سنة القرآن الكريم ـ كما قدمنا ـ على سوق آيات الربوبية ثم الخلوص منها إلى الدعوة لتوحيد الإلهية: فيجعل الأولى برهاناً على الثانية كما في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ (١).

وكما في قوله تعالى من سورة النمل:

﴿أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٢.

ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا، أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون. أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون. أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [١].

وأما توحيد الإلهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية، ومعنى كونه متضمناً له أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الإلهية؛ فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً لا بد أن يكون قد اعتقد أنه هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره ولا مالك له سواه، فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه، وأن كل ما يدعى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوا واشكروا له إليه ترجعون﴾ [٢].

وأما توحيد الأسماء والصفات فإنه شامل للنوعين السابقين، فهو يقوم على إفراده سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها كونه رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته، وكونه إلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته.

فاسم الرب لا ينصرف عند الإطلاق إلا إليه: فله وحده الربوبية المطلقة الشاملة لجميع خلقه.

وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق - كما قدمنا - إلا عليه وحده فهو ذو

(١) سورة النمل الآيات ٦٠ - ٦٤.

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ١٦ - ١٧.

الإلهية على جميع خلقه ليس لهم إله غيره، وبالجملة فهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد متكافلة متلازمة يكمل بعضها بعضاً ولا ينفع أحدها بدون الآخرين.

فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الإلهية فكذلك لا يصح توحيد الإلهية بدون توحيد الربوبية، فإن من عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئاً في عبادته، ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغيره تأثيراً في شيء أو قدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله أو أنه يملك ضر العباد ونفعهم، ونحو ذلك فهذا لا تصح عبادته، فإن أساسها الإيمان بالله رباً له شئون الربوبية كلها.

وكذلك من وحد الله في ربوبيته وإلهيته ولكنه سمى غيره باسمه أو ألحد في أسمائه، فلم يثبت له، ما دلت عليه تلك الأسماء من صفات الكمال أو أثبت لغيره مثل صفته لم ينفعه توحيده في الربوبية والإلهية، فلا يكمل لأحد توحيده حتى يجمع بين أنواع التوحيد الثلاثة.

آثار التوحيد في الفرد والجماعة

لا يشك عاقل في أن عقيدة التوحيد هي الفطرة الإنسانية العامة التي فطر الله الناس عليها، وأن هذه الفطرة، إذا استقامت، ولم تفسد بعوامل الهوى والتقليد والعصبية، فإنها تكون قوة موجهة للنفس الى الترقي في مدارج الكمال، حافزة لها على التحلي بخصال الخير كلها والتنزه من رذائل الأخلاق ومكروه الأعمال.

فعقيدة التوحيد إذا صحت كانت مركز إشعاع يضيء جوانب النفس فيطهرها من الأوهام والخرافات وينزهها عن الملكات السيئة التي تلازم تلك الأوهام، فتتخلص بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم، ويرتفع شأن الإنسان وتسمو قيمته بما يصير إليه من الكرامة، بحيث لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين.

يقول الإمام محمد عبده رحمه الله في إعلاء التوحيد لشأن الفرد تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة

غيره، سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هي، كإرادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة موهومة اختراعها الخيال، كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها.

وافتكت عزيمته من أسر الوسطاء والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الإشفاء والإسعاد، وبالجملة فقد اعتقد روحه من العبودية للمحتالين والدجالين وصار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا علي في الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته.

آثار الشرك ومفاسده

أعجبتني كلمة لبعض الباحثين في هذا الصدد أثبتها هنا بنصها يقول: إن أكبر الكبائر الإشراك بالله تعالى: ذلك لأن الشرك ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، وحجب متلاطمة لا يقر لها قرار، فهو يجعل الإنسان عبد للمخلوق، وهو لا يعبد المخلوق إلا جلباً لفائدة أو دفعاً لضرر، فهو في الواقع عبد لمصلحته، وبالتالي هو عبد لنفسه، وعبادة النفس معناها أن الشخص غير صالح ليكون عضواً كريماً عاملا على الرقي بالجماعة الإنسانية محققاً لسعادتها.

بل هو على الضد من ذلك يكون عدواً للإنسانية هادماً لأركانها ساعياً في شقائها دون أن يدري.

إذ أن الشرك يقلب الأوضاع، فيجعل الحق باطلا والباطل حقاً والخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تبنى قواعد الجماعات على أسس سليمة، ذلك أن العلاقات الإنسانية تكون مبنية على مستلزمات الشرك وهي الجشع والتربص والحقد والكذب وسفك الدماء والعدوان والاستعباد والإذلال.

كل ذلك يؤدي إلى انفراط نظام العقد الإنساني الذي يتحول إلى فوضى لا ضابط لها ولا رابط، يسودها الخوف ويخيم عليها القلق، وتتخللها الحروب التي لا تنتهي والتي تسببها الأطماع التي لا تنتهي، وحينئذ تصبح الحياة شقاء لا سعادة فيه وجحيما لا يطاق يعذب فيه البشر بعضهم بعضاً.

وننتقل إلى الجزء الثاني من البحث وهو تاريخ دعوة التوحيد من عهد آدم عليه السلام.

مجمل قصة آدم

جاءت قصة آدم عليه السلام في عدة سور من القرآن الكريم فقد ذكرت في سورة البقرة والأعراف وبني إسرائيل والكهف وطه وص.

ولعل ما جاء منها في صورة البقرة هو أكثرها تفصيلا، فإنه يعرض لما جرى قبل خلق آدم من مقاولة بين الله عز وجل وبين الملائكة حيث أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، وقد اختلف عمن يكون الخليفة؟ فقيل خليفة عن الله يخلفه سبحانه في عمارة الأرض بالعدل والتوحيد وتنفيذ أحكام الله بين أهلها، والمراد به آدم ومن يتأهل لمنصب تلك الخلافة من ذريته من الرسل والأنبياء ورعاة الإصلاح من أتباعهم والحكام العادلين.

وقيل المعنى بخليفة النوع الإنساني كله أي يخلف بعضه بعضاً في الحياة على ظهر الأرض والقيام بعمارتها كما في قوله تعالى ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [1] فقوله ﴿خلائف الأرض﴾ [2] أي يخلف بعضكم بعضاً فيها قرنا بعد قرن وجيلا إثر جيل.

وقيل خليفة عمن كان يسكن الأرض قبله ويعمرها من الجن فقد روى أنهم كانوا يسكنون الأرض قبل آدم فلما أفسدوا فيها أمر الله عز وجل الملائكة أن تطردهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال ثم أخبرهم بعد ذلك أنه جاعل في الأرض خليفة من هؤلاء الجن فأجاب الملائكة ربهم بقولهم ﴿أتجعل فيها من

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٥.

يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ـ قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾[1] وليس ذلك اعتراضا من الملائكة على الله عز وجل ولكنه سؤال عن الحكمة في استخلاف من تقع منه هذه المخالفات مع أنهم فيما يبدو لهم أنهم أحق بذلك الاستخلاف.

ثم كان ما أراده الله عز وجل من خلق آدم حيث أخذ قبضة من كل تراب الأرض وعجنها بالمياه المختلفة وترك طينته حتى صارت حمأ مسنونا ثم صلصالا كالفخار؛ ثم سواه بيده ونفخ فيه من روحه فصار حيوانا ذا حس وشعور وقدرة على الكلام والحركة، ثم أراد أن يظهر فضله وشرفه حتى يبطل ما كانت تقوله الملائكة وما كانت تضمره في نفسها من أن الله لن يخلق خلقاً أعلم منهم ولا أكرم عليه منهم؛ فعلمه الأسماء كلها بأن عرض عليه الأشياء وسماها له بأسمائها ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم على سبيل التعجيز ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾[2].

فما كان منهم إلا الاعتراف بالعجز والتفويض إلى الله فيما لم يعلموه قائلين: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» ولم يكن هذا مما علمهم الله إياه إذ لا شأن لهم به فأمر الله آدم أن ينبئهم بأسمائهم فأنبأهم بها.

وهنا أمرهم الله عز وجل بالسجود لآدم اعترافا بفضله وتفوقه والظاهر أنه لم يكن سجوداً بوضع الجبهة على الأرض على جهة العبادة وإنما كان سجود تحية بالانحناء كما كان سجود إخوة يوسف له؛ أو المراد به الخضوع والطاعة والتسخير الذي هو معنى السجود في اللغة ومنه قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾[3].

وقد ورد أن أم يحي عليه السلام كانت تقول لمريم عليها السلام: «إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك» أي أن يحي سيكون تابعاً لعيسى عليهما السلام مع أن كلا منهما نبي ورسول.

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠. (٢) سورة البقرة الآية ٣١. (٣) سورة الرعد الآية ١٥.

ولو فرض أنه كان سجوداً بوضع الجبهة على الأرض فإنه كان امتثالاً لأمر الله، ولم يقصد منه العبادة.

ثم أمر الله آدم أن يسكن الجنة هو وزوجه حواء التي خلقها له من ضلع من أضلاعه اليسرى ليسكن إليها وأباح لها أن يأكلا منها رغداً حيث شاءا إلا شجرة واحدة نهاهما عن قربانها أي عن جنسها كله لا عن شجرة بعينها.

وكان إبليس لعنه الله قد حسد آدم على ما أحرزه من فضل وامتنع من السجود له وأبى عن أمر الله واستكبر فطرده الله وسجل عليه لعنته إلى يوم الدين فطلب من الله أن يؤخر أجله إلى يوم البعث حتى يتمكن من إغواء آدم وذريته وقد أجابه الله إلى ما طلب وقال له: ﴿إنك من المنظرين﴾ [١].

فلما أسكن الله آدم وزوجه الجنة ونهاهما عن الأكل من الشجرة وجد إبليس الفرصة سانحة للإضلال والإغواء فتوجه إليهما في صورة الناصح لهما المشفق عليهما وقال لهما: « ما نها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن النا صحين فدلاهما بغرور » ووقعا في الخطيئة « وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » وأهبطه إلى الأرض ليبتليه وذريته وقال: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [٢].

هذا هو ملخص قصة آدم عليه السلام كما نطقت به الآيات الكريمة من الكتاب العزيز مجردة من تلك الاضافات والحواشي المأخوذة مما عند أهل الكتاب وهي أمور لا حاجة بنا والحمد لله إليها ولا يتو قف فهم القصة والإستفادة منها عليها والذي يهمنا من تلك القصة ويتعلق منها بموضوع التوحيد آيتان كريمتان ذكرتا في سورة الأعراف.

١ - الأولى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهروهم ذريتهم

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٣٦.

وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ [1].

٢ ـ والآية الثانية قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾ [2].

الكلام على الآية الأولى

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره عند الكلام على هذه الآية(يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنهُ لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ [3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله:

حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري ابن يحي بن

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٣) سورة الروم الآية ٣٠.

الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: (غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: ما بال أقوام يتناولون الذرية؟)

فقال رجل يا رسول الله ﷺ: (أليسوا أبناء المشركين) فقال (إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها).

قال الحسن ولقد قال الله في كتابه ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ [1] الآية.

ثم قال ابن كثير بعد هذا:

(وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم).

وبعد أن أورد هذه الآثار عقب على ذلك بقوله:

« فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ».

وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وفي حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن الآية بذلك.

قالوا ولهذا قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ [2] ولم يقل من آدم (من

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [1] وقال ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ [2].

ثم قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾ [3] أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً.

قال والشهادة تكون تارة بالقول: كقوله ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ [4] الآية.

وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ [5] أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون كذلك.

وكذا قوله تعالى ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ [6].

كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال، كقوله ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ [7].

قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أنه جعل الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه.

فإن قيل إخبار الرسول ﷺ كاف في وجوده.

فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٣.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٣٠.
(٥) سورة التوبة الآية ١٧.
(٦) سورة العاديات الآية ٧.
(٧) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾[1] وقال ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾[2].

ثم قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾[3] أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً.

قال والشهادة تكون تارة بالقول: كقوله ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾[4] الآية.

وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾[5] أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون كذلك.

وكذا قوله تعالى ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾[6].

كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال، كقوله ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾[7].

قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أنه جعل الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه.

فإن قيل إخبار الرسول ﷺ كاف في وجوده.

فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٣.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٣٠.
(٥) سورة التوبة الآية ١٧.
(٦) سورة العاديات الآية ٧.
(٧) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال ﴿أن تقولوا﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين إلخ.

وهكذا أطال ابن كثير رحمه الله القول في نصرة هذا المذهب الذي ارتضاه في تفسير الآية، وهو أن المراد بأخذ الذرية من ظهور بني آدم هو إخراجها بالولادة إلى هذه الحياة، وأن المراد بإشهادهم على أنفسهم بربوبية الله لهم هو ما نصب لهم من الدلائل والآيات الشاهدة بذلك في الآفاق وفي أنفسهم، وأن المراد من إقرارهم بذلك هو ما فطروا عليه من التوحيد والإعتراف بالصانع جل شأنه.

وقد انتصر لهذا الرأي كثير من أصحاب التفاسير لاسيما المنتسبين منهم إلى التفسير بالرأي كما نصره أحد تلامذة ابن كثير وهو العلامة زين الدين الحنفي شارح الطحاوية، فقد قال عند شرحه لقول صاحب الطحاوية «والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق» كلاماً يشبه كلام شيخه بل لعله هو بنصه ومما جاء في كلامه «وأعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، ثم أعادهم كالثعلبي والبغوي وغيرهما، ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم كالزمخشري وغيره، ومنهم من ذكر القولين كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم، ولكن نسب الرازي القول الأول إلى أهل السنة والثاني إلى المعتزلة.

ولا ريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعنى أن الأخذ كان من ظهر آدم، وإنما فيها الأخذ من ظهور بني آدم. وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث، وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار كما في حديث عمر رضي الله عنه وفي بعضها الأخذ وإراءة آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهاد، كما في حديث أبي هريرة.

والذي فيه الإشهاد على الصفة التي قالها أهل القول الأول موقوف على ابن

عباس وعمر وتكلم فيه أهل الحديث، ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرك على الصحيحين والحاكم معروف تساهله رحمه الله » أ هـ.

ونحن رغم هذه المحاولات من جانب ابن كثير وتلميذه لمناصرة هذا الرأي الثاني نرى أنه بعيد عن ظاهر الآية، وأن القول به يحتاج إلى كثير من التكلف في تأويلها، فلا بد فيه من تأويل الأخذ من الظهور بالإبراز إلى الوجوه وتأويل الإشهاد بنصب الأدلة وتأويل شهادتهم على أنفسهم بإقرار الفطرة إلخ.

كما أننا لا نعرف أحداً من السلف قال به بل كل كلامهم فيما يوافق الرأي الأول الذي هو أقرب إلى منزعهم في البساطة وعدم التكلف وأما ما دعاه ابن كثير وتلميذه من أن الأحاديث المتضمنة للإشهاد الحقيقي موقوفة على الصحابة، فقد رد عليه محدث عصره الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في هامشه على شرح الطحاوية بقوله: « حديثا ابن عباس وعمر صحيحان مرفوعان » وتعليلهما بالوقف على ابن عباس وعمر غير سديد، كما بينا ذلك في شرحها في المسند ».

ولو صح وقف هذين الحديثين على عمر وابن عباس رضي الله عنهما فإنه لا يفيد في تضعيف الرأي الأول، بل يؤيده ويقويه، لا سيما وهو متفق مع ظاهر الآية، ومعلوم أن مثل هذا مما لا يقوله الصحابي بالرأي، لأنه من قبيل الأخبار التي لا تعلم إلا من جهة صاحب الشرع.

ولعل من المفيد أن نورد حديثي عمر وابن عباس لنرى مدى موافقتهما للرأي الأول، وأن محاولة الطعن فيهما بالوقف وغيره تعسف لا معنى له.

أما حديث ابن عباس فقد قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا حسين بن محمد حدثنا هرير - يعني بن حازم - عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه؛ ثم كلمهم قبلاً قال ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله - المبطلون ».

وأما حديث عمر رضي الله عنه فقد قال الإمام أحمد: حدثنا روح - هو ابن عبادة - حدثنا مالك وحدثنا إسحاق، حدثنا مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عنه مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾ [1] الآية.

فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل يارسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار».

وأما ما احتج به ابن كثير وغيره من أن الأحاديث فيها أخذ الذرية من ظهر آدم نفسه، وأما الآية فتصرح بأن الآخذ من ظهور بني آدم، فيكون الأخذان متغايرين، وبذلك لا تصلح الأحاديث حجة في تفسير الآية.

فهذا احتجاج في غاية الضعف، فإن أخذ الذرية من ظهور بني آدم قبل خلقهم هو بعينه أخذها من ظهر آدم، إذ هو الأصل الذي تجمعت فيه بالقوة كل أفراد النوع الإنساني، وقد علم الله كل ما سيخرج منه من ذرية إلى يوم القيامة فاستخرجها وأشهدها.

وأما احتجاجهم بأن مثل هذا الإشهاد لا يصلح أن تقوم به حجة لأن أحداً ممن أخذ عليهم هذا الميثاق لا يذكره مع أن الآية تفيد أن الله احتج عليهم به، فلا بد أن يكون إشهاداً تقوم به الحجة.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

فنقول لهم إن الحجة ليست في نفس الإشهاد بل في تذكيرهم به على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتكذيبهم للرسل لاينفي قيام الحجة عليهم، فإنهم قد كذبوا بالمعجزات التي جاءت بها رسلهم، مع أن الحجة قد لزمتهم بها، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (١) إذ المعنى والله أعلم: ذكرنا كم بهذا الميثاق في كتابنا وعلى لسان رسولنا، حتى لا تحتجوا يوم القيامة بأنكم كنتم عنه غافلين لا تذكرونه، وحتى لا تحتجوا بأنكم وجدتم آباءكم مشركين فقلدتموهم في شركهم وضلالهم.

وإني لأعجب كيف ينزع رجل سلفي النزعة كابن كثير إلى مناصرة هذا الرأي وينسبه إلى السلف.

ولعل الفخر الرازي كان أدق منه حين نسب الرأي الأول إلى أهل السنة والثاني إلى المعتزلة، والله أعلم.

الكلام على الآية الثانية

وهي قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾ (٢).

« ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منها كما قال تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (٣).

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٨٩ - ١٩٨.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ [1] الآية. وقال في هذه الآية الكريمة ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [2] أي ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ [3].

فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

(فلما تغشاها) أي وطئها (حملت حملاً خفيفاً) وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً. إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله ﴿فمرت به﴾ [4].

قال مجاهد استمرت بحمله وروى عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي مثله. وقال ميمون بن مهدان عن أبيه استخفته. وقال أيوب سألت الحسن عن قوله ﴿فمرت به﴾ قال لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به وقال قتادة فمرت به استبان حملها وقال ابن جرير معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت.

وقال العوفي عن ابن عباس استمرت به فشكت أحملت أم لا؟ (فلما أثقلت) صارت ذا ثقل بحملها، وقال السدي كبر الولد في بطنها (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً) أي بشرا سوياً كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البحتري وأبو مالك أشفقا أن لا يكون إنساناً وقال الحسن البصري أئن آتينا غلاماً (لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) يذكر المفسرون ها هنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة.

---

(١) سورة النساء الآية ١.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٩.

(٣) سورة الروم الآية ٢١.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٩.

قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال: (لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره).

وبعد أن عدد ابن كثير طرق هذا الحديث ورواته قال:

والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً فالله أعلم (الثاني) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً كما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال سمي آدم ابنه عبد الحارث).

الثالث أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال قال الحسن (عنى بها ذرية آدم) ومن أشرك منهم بعده يعني(جعلا له شركاء فيما آتاهما).

وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال (كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا) وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو

وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم.

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله ما ورد في هذه الآية من آثار كلها ترجع إلى ابن عباس رضي الله عنهما وعقب عليها بقوله (وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب).

وهكذا نرى ابن كثير هنا أيضاً يحاول الخروج على ظاهر الآية وينكر الأحاديث والآثار الموافقة لها وينسبها إلى أخبار أهل الكتاب ونحن مع ميلنا إلى رأيه في هذه المسألة كنا نحب أن يصنع كما صنع غيره من حمل الآية على الظاهر ثم محاولة الدفاع عن آدم وحواء بأن شركهما إنما كان في التسمية لا في العبادة وكان على سبيل الخطأ غير المتعمد وقد عوتبا عليه.

قال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف في تفسيره صفوة (البيان)

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ [1] نزلت الآية في تسمية آدم وحواء ولديهما بعبد الحارث بوسوسة إبليس لحواء - وكان يسمى بين الملائكة الحارث - حين علم موت أولادهما وحرصهما على حياتهم فزين لها إنها إذا سمت ابنها بهذا الإسم عاش ففعلت وأقرها آدم على هذه التسمية وهو ليس شركاً في العبادة وإنما هو شرك في التسمية وهو خلاف اللائق بهما ولذا عوتبا عليه، والتعبير بالجمع في قوله (شركاء) لأن من استساغ الشركه في التسمية في واحد استساغها في الأكثر.

وقيل المراد بالنفس الواحدة آدم وبالزوج حواء وقد دعوا ربهما حين أثقلها الحمل لئن آتينا ولداً صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعل أولادهما من بعدهما لله شركاء فيما آتى أولا دهما من الأولاد.

وقال في المواقف (وقد يتمسك في ذنبه - أي آدم - بقوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها

(١) سورة الإعراف الآية ١٨٩.

حملت حملاً خفيفاً ﴾[1] الآية.

والجواب أن أكثر المفسرين على أن الخطاب لقريش والنفس الواحدة قصى، وجعل منها زوجها أي يجعلها عربية من جنسه وإشراكهما تسميتهما أبناءهما بعبد مناف وعبد العزي وعبد الدار وعبد قصى فليس الضمير في (جعلا) لآدم وحواء.

وإن صح أنه لآدم فأين الدليل على الشرك في الألوهية؟ وفعله هو الميل إلى طاعة الشيطان وقبول وسوسته مع الرجوع عنه إلى اللّه وذلك غير داخل تحت الإختيار أو لعله قبل النبوة)

وقد استدرك شارحه السيد الشريف الجرجاني على هذا الجواب الأخير بقوله:

(فإن قلت قد مر امتناع الكفر على الأنبياء مطلقاً قلت معنى إشراكهما باللّه أنهما أطاعا إبليس في تسمية ولدهما بعبد الحارث كما مر في القصة وليس ذلك كفراً بل ذنباً يجوز صدوره قبل النبوة وقد يقال معنى جعلا أنه جعل أو لادهما على حذف المضاف كما يدل عليه جمع الضمير في يشركون. واللّه أعلم).

ما بعد آدم عليه السلام

مات آدم عليه السلام بعد أن ترك في أولاده شريعة يعملون بها. وبعد أن أسس لهم عقيدة تقوم على توحيد اللّه في العبادة وإسلام الوجه له وحده، إذ من المعروف أن آدم عليه السلام كان نبياً مكلماً وأن اختلف العلماء في إرساله الصحيح أنه نبي غير رسول لما جاء في حديث الشفاعة من قول الناس لنوح عليه السلام (أنت أول رسول بعث إلى أهل الأرض)،وما دام آدم نبياً فلا بد أن اللّه قد شرع له ولأولاده ديناً يتعبدون اللّه به وينظمون به أحوال معيشتهم وليس هناك ما يحدثنا عن تلك الفترة التي أعقبت آدم عليه السلام والتي امتدت إلى

(١) سورة الإعراف الآية ١٨٩.

ظهور نوح في قومه يدعوهم إلى الله وكانوا قد أحدثوا عبادة الأوثان.

ولعل الضوء الوحيد الذي يكشف لنا عن حال هذه الفترة هو قوله تعالى من سورة البقرة: « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ».

وقد اختلف المفسرون في هذه الأمة الواحدة هل كانت متفقة على التوحيد والإسلام أم كانت واحدة في الشرك والضلال، فمنهم من رجح الأول، ومنهم من رجح الثاني، ولعل من المفيد أن نورد كلام بعضهم حول هذه الآية ثم نعقب على ذلك بذكر الرأي الذي يختاره فيها وسبب هذا الإختبار.

قال العلامة ابن كثير في تفسيرها (قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ورواه الحاكم في مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار، ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وكذا روى أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فيه فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين).

وقال عبد الرزاق أخبرنا عن معمر عن قتادة في قوله كان الناس أمة واحدة قال: كانوا على هدى جميعاً (فاختلفوا فبعث الله النبيين) فكان أول من بعث نوحاً: وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولاً.

وقال العوفي عن ابن عباس: « كان الناس أمة واحدة » يقول كانوا كفاراً

(فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض) أ هـ.

وظاهر من هذا النص أن ابن كثير يعضد الرأي الأول وهو أن الناس كانوا أمة واحدة متفقة على التوحيد.

وقال صاحب صفوة البيان: « كان الناس أمة واحدة » كان الناس جميعاً على شريعة من الحق، ثم اختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب بشرائعه ليحكم بين الناس بالحق فيما اختلفوا فيه.

وظاهر من ذكره الرأي الأول وحده أنه لم يعتد بالرأي الثاني ولم يره شيئاً.

ومن الناحية الأخرى نجد الأستاذ الإمام محمد عبده يرجح الرأي الثاني ويعلل له بأن المقتضي لإرسال الرسل ليس هو الإتفاق على التوحيد والحق، بل على نقيضه من الشرك والضلال، وسننقل هنا ما كتبه فضيلته في تفسير هذه الآية نقلاً عن تفسير المنار لتلميذه السيد رشيد رضا. قال رحمه الله:

« تطلق الأمة في كتاب الله تعالى بمعنى الملة أي العقائد وأصول الشريعة كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [١] بعدما ذكر من شأن جماعة الأنبياء صلوات الله عليهم، وكما قال في سورة المؤمنين: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة وأنا ربكم فاتقون﴾ [٢].

رجح كثير من المفسرين أن المراد من الأمة في الآيتين الملة أي العقائد وأصول الشرائع، أي أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد كما قال: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [٣] وقال كثير منهم إن الأمة في هذه

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩.

الآية بمعنى الجماعة كما هي في قوله تعالى ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[1] أي جماعة، وكما في قوله ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[2] ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقاً، وإنما هي بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع يعتبرون بها واحداً وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحداً كاسم الأمة.

وتكون بمعنى السنين كما في قوله تعالى: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾[3] وفي قوله ﴿واذكر بعد أمة﴾[4].

وبمعنى الإمام الذي يقتدي به كما في قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾[5].

وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[6].

وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة على ما ذكرنا وإنما خصصه العرف تخصيصاً.

وقد حمل جمهور من المفسرين لفظ الأمة في هذه الآية على الملة ثم اختلفوا فيم كانت الملة؛ فقال جمهورهم: إنها ملة الهدى والدين القويم، فيكون معنى الآية في رأيهم: ﴿كان الناس أمة﴾[7] أي ملة (واحدة) قيمة الدين صحيحة العقائد جارية في أعمالها على أحكام الشرائع ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[8].

ولما وجدوا أن المعنى لا يكون قويماً لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٨١.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤.
(٣) سورة هود الآية ٨.
(٤) سورة يوسف الآية ٤٥.
(٥) سورةالنحل الآية ١٢٠.
(٦) سورة آل عمران الآية ١١٠.
(٧) سورة البقرة الآية ٢١٣.
(٨) سورة البقرة الآية ٢١٣.

الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما يختلفون فيه، إذ لا يتأتى الاختلاف الذي يحتاج في رفعه إلى رسالة الرسل مع استقامة العمل الوقوف عند حدود الشرائع، قالوا لا بد من تقدير في العبارة، فيكون الكلام كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين، والقرينة على هذه القضية المقدرة قوله فيما بعد ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

وأنت ترى أن هذا بمنزلة أن تقول: «كان زيد عالماً فبعثت إليه من يعلمه ما كان نسيه من معلوماته» أو كان عاملاً فأرسلت إليه من يعظه في العودة إلى ما ترك من عمله وتقول إن كلامي على تقدير كان عالماً فنسى، أو كان عاملاً فترك العمل فبعثت إليه أو أرسلت إليه إلخ، وهو مما لا يقبله ذوق عربي.

فإذا كنت لا تراه لائقاً بكلامك فكيف تجده لائقاً بكلام اللّه أبلغ الكلام وأولى قول بملك العقول والأفهام.

ومما استدلوا به على صحة قولهم أن آدم عليه السلام كان نبياً وكان أولاده على ملته هادين مهتدين إلى أن وقع التحاسد بين ولديه وكان من قتل أحدهما للآخر ما هو معروف، وأن الإنسان يولد على الفطرة السليمة والدين الحق، وإنما يعرض له ما ينحرف به عن الفطرة من تحكم الأهواء وإغواء الشهوات وزين الشبهات ونحو ذلك، فلا ريب يكون للإنسان طور أول كان فيه خيراً عادلاً واقفاً عند الحق فيما يعتقده وما يعمل ثم يعرض عليه ما يعرض من الميل إلى الشر والقبح من الأعمال، ولكن هذه الأدلة لا تغير شيئاً مما ذكرناه مختصاً بتأليف الكلام.

على أنه قد عرض على أولاد آدم من بعده أطوار كثيرة بلغ بهم الجهل في بعضها أن كانوا ملة واحدة في الكفر وفساد الأعمال كما كانت الحال لعهد نوح وعهد إبراهيم من بعده.

والآية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة، وغاية ما في الأمر أن يكون النبيون المبعوثون مخصوصين بغير آدم أو نوح، فمثلاً إذا حملت الأمة الواحدة على أمة الضلال وملة الفساد والإعتلال ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة أمة الضلال التي لا تهتدي بحق ولا تقف في أعمالها عند حد الشريعة، واحتجوا على قولهم بهذا التعقيب في الآية، فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون كذلك حتى تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم ليحكموا بينهم في الإختلاف الذي يقع فيهم بسبب الفساد في العقائد والذهاب مع الأهواء الضالة في الأعمال واعتداء بعضهم على بعض لذلك وانتهاكهم حرمة ما أمر الله برعاية حرمته، فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدة في الباطل حتى يرد عليه الحق فيزهقه وأمّا لو كانت الأمة واحدة في الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر.

ودفعوا ما يقال من أن آدم كان نبياً وكان أولاده من بقي على شريعته، فكيف يقال إن الناس كانوا أمة واحدة على الباطل (دفعوه) بأن الحكم على الغالب، فقد كان الناس لعهد نوح كفاراً إلا القليل منهم، ومن المعروف أنه يقال دار كفر لمن كان أغلب سكانها كفاراً وأن كان فيها مسلمون.

وقد يجاب بما تقدم ذكره من تخصيص النبيين بما بعد آدم ونوح، من ابراهيم ومن بعده، ولكن المعنى كما تراه ليس مما تطمئن إليه النفس بعد النظر إلى آدم ورسالته ومن بقي من أولاده على ملته.

وقال أبو مسلم والقاضي أبو بكر إن وحدة الأمة كانت فيما هو من مقتضى أصل الفطرة من الأخذ بما يرشد إليه العقل في الاعتقاد والعمل، فكان الناس يهتدون بعقولهم والنظر المحض في الآيات الدالة على وجود الصانع ووجوب شكره ثم كانوا يميزون الحسن من القبيح، والباطل من الصحيح بالنظر في المنافع والمضار أو الاتفاق مع ما يليق بالله على حسب ما يرشد إليه العقل أو ما لا يليق ولا ريب أن استسلام الناس إلى عقولهم بدون هداية إلهية مما يدعو إلى

الاختلاف، بل كثيراً ما حالت الأوهام دون الوصول إلى المراد من العقائد والأحكام، فيكون الاختلاف مفهوماً من معنى الوحدة على هذا التأويل وما سبقه، ولهذا رتب عليها بعثة الأنبياء ليحكموا بما أنزل الله فيما اختلف فيه الناس.

وقد أورد القاضي على نفسه مسألة آدم ورسالته وأجاب عنها بأنه من الجائز أن يكون آدم وأولاده قد بدأ امرهم على سنة الفطرة فكانوا من أهل النظر. ثم بعد أن كثر أولاده وظهر أن هداية العقل وحده لا تكفي في حفظ سلامة القلوب لإصلاح الأعمال، أرسله الله إليهم بهداية إلهية من عنده، وأنه من المحتمل بل يكاد يكون من المحقق أنه طرأ على نسل آدم ما أنساهم شرعه فعادوا إلى استعمال عقولهم وحدها، فعادت إليهم الوحدة فيما يؤدي إلى الاختلاف فبعث الله النبيين الخ.

وتوقف قوم في معنى الأمة وقالوا لا حاجة إلى البحث في أنها كانت أمة هداية أو أمة ضلال أو أمة أعقل، وهو قول غاية في الغرابة، لأنه ذاهب إلى ترك فهم الآية الكريمة، ومعنى ترتيب بعثة الأنبياء على وحدة الأمة، اللهم إلا أن يكون القائل قد أراد ما سيأتي لنا ذكره إن شاء الله تعالى.

وأغرب من هذا القول قول بعض المفسرين عن مجاهد أن الناس هم آدم وحده، وإنه كان أمة يقتدى به، ولا ندري ماذا يقول أصحاب هذا القول في تفسير بقية الآية، نعوذ بالله من الخذلان.

وزعم آخرون أن المراد من الآية أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى عليه السلام ثم اختلفوا بغياً بينهم فأرسلت إليهم الرسل بكتب تهذبهم كما أرسل داود بزبوره وعيسى بإنجيله ليردوهم إلى الحق فيما اختلفوا فيه وهو تخصيص للناس وللنبيين بما لا دليل عليه البتة كما لا يخفى.

قال ابن العادل نقلا عن القرطبي: ولفظه (كان) على هذه الأقوال على بابها من المعنى، ويحتمل أن تكون للثبوت والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس

كله أنهم أمة واحدة في خلوهم من الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بالرسل تفضلا منه، فلا تختص بالمضي فقط بل يكون معناها كقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ [1] ا هـ. وقد قارب الصواب في هذا الاحتمال الثاني وهو الذي كان يذهب الذهن إليه لأولي الأمر لولا ما يشغل به من النظر في تلك الضروب من التأويل فتفرق به السبل ويكاد يضل السبيل.

ونحن ذاكرون لك إن شاء الله ما يجلي المعنى في الآية، مقتفين أثر ابن العادل والقرطبي فيما قالاه في معنى (كان) وأنها للثبوت لا للمضي غير أنا نقدم لك ما جاء في كتاب الله من وصف الأمة بالواحدة والمعنى من ذلك الوصف في مواضعه المختلفة ليكون في ذلك توضيح لما نقصد وسند لنا فيما إليه نعمد والله الموفق ا هـ.

وهكذا يقدم لنا الأستاذ الإمام عرضا رائعاً لسائر الأقوال الواردة في هذه الآية مع التعقيب عليها بالنقد الذي يظهر منه أنه لا يرى رأي الجمهور في أن المراد بالأمة الواحدة المتفقة على الهدى والحق، ويؤثر عليه القول الثاني الذي يجعل الاتفاق إنما هو في الضلال والكفر لأنه هو الذي يصح ترتيب بعثة الرسل عليه، ولكنه مع ذلك لا تطمئن نفسه إليه لمكان رسالة آدم وهداية أولاده بتلك الرسالة.

وأخيراً نراه يجنح إلى الاحتمال الذي نقله عن ابن العادل والقرطبي في أن (كان) في الآية ليست على بابها من الدلالة على المضي وإنما هي للثبوت.

ثم يمهد لرأيه بمقدمة يتعرض فيها لبيان معنى وحدة الأمة في كل موضع ذكرت فيه هذه الوحدة من القرآن ثم يقول بعد ذلك:

فهل يمكنك مع هذا أن تحمل وحدة الأمة على وحدة العقيدة والعمل كما حملتها على ذلك في الآيات الأخر، ليس ذلك بممكن لأن الناس ليسوا أمة واحدة بذلك المعنى بل هم مختلفون، فلا ريب أنه يجب حمل وحدة الأمة على

(١) سورة الأحزاب الآية ٥.

معنى آخر وهو ذلك الذي نختاره في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ثم يأخذ بعد ذلك في بيان رأيه فيقول: (خلق الله الإنسان أمة واحدة أي مرتبطا بعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضاً).

ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج إليه فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم في بعض شأنه كما يستعينون به في بعض شأنهم، وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم (الإنسان مدني بالطبع) يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته بل قدر له أن تكون منزلة أفراده من الجماعة منزلة العضو من البدن ولا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء كما لا تؤدي الأعضاء وظيفتها إلا بسلامة البدن.

فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك، وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم وينحون في أعمالهم نحو المنافع التي يرونها لازمة لقوام معيشتهم. ولم يمنحوا من قوة الإلهام ما يعرف كلا منهم وجه المصلحة في حفظ حق غيره لتوفير المنفعة بذلك لنفسه.

لما كانوا كذلك كان لا بد لهم من الاختلاف وكان من رحمة الله بهم أن يرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين. وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التي نفسرها يكون على هذا المعنى.

إن الناس أمة واحدة لا بد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد يكفل لهم ما يحتاجون إليه مدة بقائهم في هذه الحياة الدنيا ويضمن لهم ما به يسعدون في الحياة الأخرى، ولا يمكنهم في هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقوا على تحديد ذلك النظام مع اختلاف الفطر، وتفاوت العقول، وحرمانهم من الإلهام الهادي لكل منهم إلى ما يجب عليه لصاحبه.

لما كانوا كذلك كان من لطف الله ورحمته بهم أن يرسل إليهم الرسل

مبشرين ومنذرين يبشرونهم بالخير و لسعادة في الدنيا والآخرة إذا لزم كل واحد منهم ما حدد له واكتفى بما له من الحق ولم يعتد على حق غيره؛ وينذرونهم بخيبة الأمل وحبوط العمل وعذاب الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ولم ينظروا في العاقبة.

إلى أن يقول (ثم أراد الله أن يقيم الدليل على أن الاهتداء بهدي الأنبياء ضروري للبشر وأنه لا غنى لهم عنه مهما بلغوا من كمال العقل فقال إن الله قضى ان يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم في توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله القادر على إثابتهم وعقوبتهم، العالم بما يخطر في ضمائرهم الذي لا تخفى عليه خافية من سرائرهم) اهـ.

هذا هو رأي الشيخ محمد بعده في تفسير هذه الآية وهو رأي لم نر أحدا من المفسرين وقع عليه وإن وقعت من بعضهم الإشارة إليه، وهو يقوم على أساس أن الإجتماع بين البشر ضروري وأنه مثار لوقوع الخصام والتنازع بينهم على مادة العيش ووجوه المكاسب وضروب المصالح فلا بد لهم من قانون يحكمهم ويضع لهم الحدود التي يلتزمونها في علاقاتهم ومعاملة بعضهم لبعض، والعقول وحدها لا يمكن أن تستقل بوضع هذا القانون لأنها متفاوتة غير منضبطة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب موازين للحق والعدل ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ومع تقديرنا الكبير لهذا الرأي الذي تفتقت عنه عبقرية الاستاذ الإمام نرى أنه لا يخلو من بعض المآخذ فهو أولا جعل مهمة الأنبياء قاصرة على تنظيم الشئون الدنيوية وفض ما بين الناس من منازعات اقتضتها ضرورة الإجتماع، مع أن مهمة الأنبياء دينية أولا تقوم على تعريف الناس بربهم وإرشادهم إلى ما ينبغي أن يقوموا به نحوه من مظاهر العبادة والشكر له على نعمه، وعلى إنذارهم بأن لهم يوماً يبعثون فيه إلى الله ليوفي كلا منهم جزاءه على ما قدم في حياته

الدنيا من سعي، ثم يأتي تنظيم الشئون الدنيوية ووضع قواعد العدل التي يجري عليها الناس في معاملاتهم وبيان ما يحل لهم ويحرم عليهم في الدرجة الثانية من الأهمية.

نعم إن الأستاذ الإمام لم يهمل هذه الناحية بل أشار إليها في كلامه ولكنه لم يجعلها الأساس الذي ترتبت عليه بعثة الرسل وهو خلاف ما تفيده الآية، فإنها دلت على أن الرسل إنما يبعثون ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه من شئون الدين.

وهذا الرأي ثانياً يقتضي الخروج بلفظة كان عن أصل وضعها فإنها موضوعة للدلالة على المضي ولا تأتي للدلالة على الثبوت إلا حيث توجد قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي كما في قوله تعالى ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ [1] فليس المراد الإخبار عنه بأنه كان كذلك في الماضي بل المراد بيان أن ذلك شأنه وصفته الثابتة له بلا قيد من وقت أو زمان.

وأخيراً ترى أن ما عاب به الأستاذ الإمام رأي الجمهور من حاجته إلى تقدير محذوف هو أيضاً لازم على الرأي الذي اختاره فإن بعثة الرسل عليه ليست مترتبة على نفس الاجتماع والتعاون الذي هو معنى الأمة الواحدة ولكنها مترتبة على ما يقتضيه هذا الاجتماع من خصام ونزاع وعدم كفاية العقول في الاهتداء إلى وضع النظام الكفيل بسلامة المجتمع وخلوه من عوامل التفكك والانحلال.

الأدلة على رجحان رأي الجمهور في الآية

وإذا كنت قد اخترت رأي الجمهور في تفسير الأمة الواحدة في هذه الآية الكريمة وهو أنها الأمة المتفقة على الحق والهدى فإني لا أرى بداً من ذكر الأسباب التي دعت إلى هذا الاختيار.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥.

١ - أولا أن هذا الرأي هو المأثور عن كثير من الصحابة والتابعين كابن عباس وأبي بن كعب وابن مسعود وعكرمة وقتادة وأبي العالية ومجاهد وغيرهم مما يكاد يكون إجماعاً، وأما رواية العوفى عن ابن عباس أنهم كانوا أمة واحدة في الكفر فهي لا تنهض على معارضة الروايات الكثيرة عنه مما يوافق الرأي الأول.

٢ - كان عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما وهما من هما، علماً بكتاب الله عز وجل ووجوه قراءته بقرآن هذه الآية ﴿وما كان الناس إلاّ أمة واحدة فاختلفوا﴾ [١] فإذا صحت هذه القراءة عنهما - وهي لا شك صحيحة - كانت تفسيراً بالمتقول، بل بالقرآن نفسه فلا يصح حينئذ العدول عنه

٣ - هذا الرأي هو الموافق للواقع، فإن الناس في عهد آدم عليه السلام وهم جميعاً أولاده وأحفاده كانوا على ملته في التوحيد والإيمان، ثم طرأ عليهم الشرك والضلال بعد قرون طويلة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد).

وكذلك كان الناس في عهد نوح عليه السلام بعد حادثة الطوفان على ملة نوح عليه السلام في التوحيد والايمان حتى طال عليهم الأمد فغيروا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وإذا كان هذا الرأي هو الموافق للواقع فيجب المصير إليه ولا يحتاج إلا لتخصيص النبيين في الآية بما سوى آدم ونوح عليهما السلام.

٤ - وهو كذلك موافق لما دلت عليه الآيات والأحاديث من أن الله فطر عباده على توحيده والإقرار بوجوده كقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ [٢] وكقوله عليه السلام في الحديث الصحيح « كل مولود يولد على الفطرة فابوه يهودانه ويمجسانه وينصرانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ».

وكقوله في الحديث القدسي: « يقول الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ».

---

(١) سورة يونس الآية ١٩.

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

فهذه الآيات والأحاديث تدل بصراحة على أن التوحيد هو الأصل والشرك طاريء عليه، وأن الناس كانوا أولا على هدى قبل أن تنحرف بهم الأهواء وتزلهم الشياطين.

وهذا هو الذي أثبته البحث العلمي القائم على التجربة، فقد توصل العلماء بعد دراسة شاملة ودقيقة لأحوال القبائل الموغلة في البداوة والهمجية إلى ان فكرة التدين أصيلة في النفس الإنسانية، وأنها لم تحدث نتيجة لعوامل اقتصادية أو اجتماعية، كما زعم بعض السطحيين من العلماء، وأن هذه الفكرة قامت أولا على التوحيد. ولعل من المفيد أن أذكر هنا بعض ما جاء على ألسنة هؤلاء العلماء خاصاً بهذه المسألة حتى يكون ذلك حافزاً لنا على الحرص على تنمية الروح الديني في هذه الأمة وتنقيته مما عسى أن يكون قد علق به من شوائب وأوضاع ظنها الناس هي الدين فتمسكوا بها معرضين عن أساسه الأول وركنه الركين وهو توحيد الله رب العالمين.

يقول فضيلة الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله في كتابه (الدين) بعد الكلام عن الفريق الذي يرى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية، وأن الإنسان هو الذي أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، قال رحمه الله:

وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر مستدلا بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة.

وهذه هي نظرية فطرية التوحيد وأصالته التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس، ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في أوستراليا وأفريقيا وأمريكا.

ومنهم (شريدر) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة (وبروكلمان) الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام (ولرواه) (وكاترفاج) عند أقزام أواسط أفريقيا.

(وشميدت) عند الأقزام وعند سكان استراليا الجنوبية الشرقية وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية.

وقال (رحمه الله) في موضع آخر من هذا الكتاب بعد عرضه للمذاهب المختلفة في نشأة الدين.

يشترك المذاهب المتقدمة كلها في أن العقيدة الإلهية وصل إليها الإنسان بنفسه عن طريق عوامل إنسانية، سواء كانت تلك العوامل من نوع الملاحظات والتأملات الفردية أم من جنس التأثيرات والضرورات الإجتماعية اللاشعورية.

في الطرف المقابل لهذه النظريات كلها يقرر المذهب التعليمي أن الأديان لم يسر إليها الإنسان بل سارت هي إليه، وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحي.

هذه النظرية التي أخذت بها أوروبا طوال القرون الوسطى وأيدها بعض علماء التاريخ حتى في القرن ١٩ لا تزال هي المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم كما أننا نجد في الكتب السماوية مصداق الجانب الإيجابي منها، فهذه الكتب تقرر أن الله سبحانه لما خلق أبو البشر كرمه وعلمه حقائق الأشياء وكان فيما علمه أنه هو خالق السموات والأرض وما فيهما وأنه هو خالق الناس ورازقهم وأنه هو مولاهم الذي تجب طاعته وعبادته وأنه سيعيدهم إليه ويحاسبهم على ما قدموا.

ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة لذريته ففعل وكانت هذه العقيدة ميراث الإنسانية عن الإنسان الأول.

نعم: إن الناس لم يكونوا كلهم أوفياء لهذه الوصية المقدسة. بل إن أكثرهم وقع في الضلال والشرك، ولكن هذا التعليم الأعلى لم يمح أثره محواً تاماً من البشرية، ولذلك ظلت فكرة الالوهية والعبادة بوجه عام مستمرة في جميع الشعوب.

على أن العناية السماوية بهذا التعليم الروحي لم تقف به عند الإنسان الأول، بل ما زالت تتعهد به الأمم في فترات تقصر أو تطول وجعلت تذكرهم به على لسان سفراء الوحي من الأنبياء والمرسلين، وإن كتب الديانات العظمى تنسب كلها إلى هذا المصدر السماوي.

ابتداء حدوث الشرك بعد آدم

جاء في كتاب الأصنام للكلبي:

أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم يابني قابيل إن لبنى شيث دواراً يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء فنحت لهم صنماً فكان أول من عملها.

ومعنى هذا الخبر أن عهد بني آدم بالتوحيد لم يطل، وأنهم لم يلبثوا أن غيروا بعد موته، وهذا غير معقول لا سيما وقد قال ابن عباس رضي عنهما (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد).

ومما جاء في هذا الكتاب أيضاً «كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين ماتوا في شهر فجزع عليهم أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: ياقوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً. قالوا نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول، وعملت على عهد بردى بن مهلايل بن قينان ابن أفوش بن شيث بن

آدم، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول.

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم وعظم أمرهم واشتد كفرهم فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام (وهو أخنوخ بن يردى بن مهلا ييل بن قينان) نبياً فدعاهم فكذبوه فرفعه الله إليه مكاناً علياً ولم يزل أمرهم يشتد فيما قال ابن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس حتى أدرك نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ فبعثه الله نبياً وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعاهم إلى الله عز وجل في نبوته عشرين ومائة سنة فعصوه وكذبوه فأمره الله أن يصنع الفلك ففرغ منها وركبها، وهو ابن ستمائة سنة وغرق من غرق، ومكث بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها، وكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومائتا سنة، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل تود إلى الأرض وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض، ثم نضب الماء وبقيت على الشط، فسفت الريح عليها حتى وارتها.

وإذا صرفنا النظر عما في أطواء هذه الرواية من زيادات غير معقولة وهي في الوقت لا حاجة إليها أمكن أن نستخلص منها أن عبادة الأصنام كانت هي النتيجة الحتمية للغلو في تعظيم قبور الصالحين والعكوف عليها وأدركنا السر العظيم في نهي الإسلام عن اتخاذ القبور مساجد، واتخاذ السرج عليها ونهيه عن رفعها وإقامة القباب عليها إلى غير ذلك مما قصد به سد الذريعة وحسم دابر الفتنة وروى ابن كثير نقلاً عن ابن جرير قال حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾[1] قال كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء

---

(١) سورة نوح الآية ٢٣.

آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم) أ هـ.

وجاء في صفوة البيان عند تفسير هذه الآية ـ وهذه الخمسة أكبر الأصنام والصور التي كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب من بعدهم كما عبدت غيرها فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل بساحل البحر أو لهمذان ويغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ أو لمراد، ثم لغطفان ويعوق لهمدان باليمن أو لمراد، ونسر لذي الكلاع من حمير.

وسيأتي إن شاء الله مزيد كلام عن هذه الأصنام عند الحديث عن ابتداء حدوث الشرك في العرب وأول من أدخل عليهم عبادة الأصنام وفتنهم بها عما كانوا عليه من ملة إبراهيم عليه السلام.

دعوة نوح عليه السلام

جاء في حديث الشفاعة في الصحيح المتفق عليه أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وهو ما دعانا إلى ترجيح الرأي القائل بأن آدم كان نبياً فقط ولم يكن رسولاً، وقد ذكرت قصة نوح في عدة سور من القرآن، منها الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء وسورة نوح، وقد قدمنا أن قومه كانوا قد أحدثوا الشرك وعبادة الأصنام، وكانوا يدعون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً، وأن هؤلاء كانوا رجالاً صالحين من قومه فلما ماتوا عكف قومهم على قبورهم ليتأسوا بهم في العبادة، ثم زين لهم الشيطان أن يتخذوا لهم صورا ليتذكروا كلما رأوها كيف كان نشاط هؤلاء في عبادة الله فيكون ذلك أدعى إلى الإقتداء بهم فلما طال عليهم الأمد، وانقرض ذلك الجيل وجاء جيل آخر أوهمهم الشيطان أن آباءهم كانوا يعبدون هذه الصور ويستسقون بها فعبدوها.

وهكذا نسي الناس عهد الله وخرجوا عن ملة التوحيد التي هي فطرة الله

ولم يبق في الأرض يومئذ من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً فأرسل الله إليهم نبيه نوحاً عليه السلاميدعوهمإلى الله عز وجل وينذرهم عقابه إن استمروا على عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة وطالت دعوته لهم ومقامه بينهم وهو لا يفتأ يدعوهم ويذكرهم بالليل والنهار، سراً وعلانية كما قال تعالى على لسانه عليه السلام.

﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ [1].

ويقول العلامة السلفي الشيخ محمد أحمد العدوى رحمه الله في كتابه (دعوة الرسل إلى الله).

(وأول شيء يلفت نظرك في هذه القصة صبر نوح على الدعوة ذلك الوقت الطويل الذي يحدثنا الله عنه في قوله ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ [2] فليعتبر بذلك الدعاة الذين يغلب على نفوسهم اليأس. ليعتبر بذلك الصبر الخارق وتلك الإرادة الحديدية. ولو لم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلاً على تأييده من ربه وصدقه في دعواته) أ هـ.

لم يستجب لنوح عليه السلام في ذلك المدى الطويل إلا نفر قليل من قومه مع وضوح دعوته وظهور حجته وطول مثا برته وأوحى الله عز وجل إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. وأمره أن يصنع الفلك بأعين الله ووحيه وأن يحمل فيها من كل نوع من الدواب والحيوانات زوجين اثنين أي ذكراً وأنثى وأن يركبها هو المؤمنين معه وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، ونهاه أن تأخذه بالكفار شفقة فيخاطب الله في شأنهم لأن الله قد حكم بإغراقهم.

---

(١) سورة نوح الآيات ٥ ـ ٩.

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٤.

وليس من غرضنا هنا ذكر قصة نوح عليه السلام، ولكن الذي يعنينا منها ومن غيرها هو ما يتصل بموضوع التوحيد الذي جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً من أجل الدعوة إليه. ونستطيع بتأمل ما ورد من الآيات بشأن هذه القصة في مواضعها من القرآن الكريم أن نستخلص منها العبر والملاحظات الآتية:

أولاً: أن أول شيء بدأ به نوح عليه السلام دعوته لقومه هو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، يتبين ذلك من قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾[1] ومن قوله في سورة هود عليه السلام ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله﴾[2] ومن قوله في سورة المؤمنون ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾[3].

وسنرى ذلك أيضاً في دعوة غيره من الأنبياء، كهود وصالح وشعيب وإبراهيم وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام. ولا عجب فإن الدعوة إلى التوحيد هي أساس كل رسالة، وقد بذلوا في سبيله أكثر أوقاتهم، وخاطروا بمهجهم وأرواحهم.

ثانياً: استمرار نوح عليه السلام في دعوته ومثابرته عليها دون انقطاع أو ملل وعدم اكتراثه بما كان يتهدده به قومه من نفي أو قتل، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الحق في ثباتهم وصبرهم وعدم مبالاتهم بتشغيب أهل الباطل عليهم وائتمارهم بهم.

ثالثاً: ذكر القرآن أن الذين عارضوا نوحاً وتصدوا لدعوته وناصبوه العداوة هم الملأ أي السادة والأشراف من قومه، وهكذا كان الحال بالنسبة لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩.

(٢) سورة هود ٢٥.

(٣) المؤمنون ٢٣.

(٤) سورة سبأ الآية ٣٤.

وهذا أمر طبيعي فإن هؤلاء الأشراف بما أشربت قلوبهم من حب الرياسة والتسلط لايرضون عن دعوة تجعل الناس كلهم سواسية وتنزل بهؤلاء السادة من أبراجهم العاجية إلى حيث يكون الدهماء والسوقة: ولهذا نراهم يجعلون المانع لهم من ا لإستجابة لنوح، والدخول في طاعته، أنه لم يتبعه إلا أراذلهم وعامتهم من الفقراء والعبيد وأصحاب الحرف الحقيرة.

ففي سورة هود عليه السلام يقول هؤلاء الملأ لنوح عليه السلام: ﴿مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ (١).

وفي سورة الشعراء يقولون له ﴿أنؤمن لك واتبعك الارذلون﴾ (٢) ولم يكتفوا بهذا بل جعلوا شرط اتباعهم لنوح عليه السلام أن يطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه ولكن نوحاً يجيبهم في حزم وصرامة أنه لا يملك منع أحد من الإيمان مهما كان ضعفه وخسة منصبه وأنه لايستطيع طرد هؤلاء الأرذلين من مجلسه لأنه يخشى إن هو فعل ذلك أن ينزل به عقاب الله الذي لا يملك أحد دفعه عنه. تأمل قوله في سورة هود عليه السلام ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون. ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾ (٣).

ولعل هذا الموقف للمستكبرين من قوم نوح حيال ضعفة المؤمنين به يذكرنا بما حاولته قريش مع رسول الله ﷺ واقتراحهم عليه أن يجعل لهم مجلساً خاصاً، لا يسمح فيه لأحد من الضعفاء أن يقربه كبلال وعمار وصهيب ونحوهم من فقراء المسلمين ولكن الوحي ينزل بتحذير الرسول من الإستجابة لما طلبه القوم

---

(١) سورة هود الآية ٢٧.

(٢) سورة الشعراء الآية ١١١.

(٣) سورة هود الآيات ٢٩ ـ ٣١.

وينذره بأنه إن فعل ذلك يكون ظالماً لأنه إنما أرسل إلى الناس كلهم فيجب أن يكونوا جميعاً سواء عنده لا يختص أحد منهم بشيء دون الآخرين. قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين [1]﴾.

بل إن الآيات لتنزل تعاتبه عليه السلام لأنه عبس في وجه أعمى يريد الدخول في الإسلام لما شغله عما كان فيه من دعوة هؤلاء الكبراء طمعاً في إيمانهم ليكون للإسلام بهم قوة ومنعة، قال تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى﴾ الآيات.

رابعاً: إن نوحاً عليه السلام سلك في دعوة قومه كل سبيل وتفنن في أساليب النصح والتذكير، فهو تارة يعدهم على الإيمان والتوحيد رزقاً حسناً وحياة طيبة وكثرة في المال والولد ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ [2] وطوراً يخوفهم عاقبة تماديهم وإصرارهم على الكفر والضلال: ﴿اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [3] ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ [4].

وأحياناً يلفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ليهتدوا بها إلى أن الخالق لهذه العوالم كلها، علويها وسفليها، هو الجدير بالعبادة وحده دون ماعداه من هذه الآلهة المزعومة التي لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لعابديها شيئاً ﴿مالكم لا ترجعون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) سورة نوح الآيات ١٠ ـ ١٢.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٩.

(٤) سورة هود الآية ٢٦

طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ (١).

وهكذا يجب أن يكون الداعي إلى الله مرناً في دعوته متفنناً في إيراد الحجج عليها، مراعياً حال المدعوين فيسلك معهم من الطرق ما يناسب حالهم ليكون ذلك أدعى إلى استجابتهم له.

خامساً: أن نبي الله نوحاً رغم طول أناته وجميل صبره لم يبد في دعوته ضعفاً ولا تردداً بل ظل ثابتاً كالطود رغم تهديد القوم ووعيدهم، وقد ذكرنا أنه لم يجبهم إلى ما طلبوه من طرد المؤمنين وإقصائهم عن مجالسهم. ولقد وقف منهم موقفاً حاسماً غاية في الروعة حين قال لهم ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن اكون من المسلمين﴾ (٢).

يقول العلامة السلفي فضيلة الشيخ محمد العدوي رحمه الله في كتابه (دعوة الرسل إلى الله) عند تعليقه على هذه الآيات. وفي القصة من العبر أنه إذا سئم المدعوون من طول مدة الدعوة فليس للداعي أن يسأم، واعتماد الداعي في دعوته على ربه لأن ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملا واستهانته بكل ما يلاقي في سبيل الدعوة ويمحص قلبه ويرفع منزلته، فهذا نبي الله نوح لا يبالي بتجمع قومه عليه واستعانتهم بشركائهم، ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم وينفذوا قضاءهم فيه، لأنه واثق بأن النصر حليفه والعاقبة له ولأنصاره.

سادساً: كان الله عز وجل قد وعد نوحا بإنجاء أهله إلا من سبق عليه القول منهم بأن يبقي على كفره، فلما غرق ابنه فيمن غرق توجه نوح إلى ربه بهذا

---

(١) سورة نوح الآيات ١٣ - ٢٠.

(٢) سورة يونس الآيتان ٧١ - ٧٢.

السؤال ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[1] يقصد به الاستعلام والكشف عن حال ولده ـ أي قد وعدتني بإنجاء أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين.

فجاءه الجواب الحاسم من الله عز وجل ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[2].

فلم يقبل الله عز وجل من نوح عليه السلام حتى مجرد السؤال عن حال ولده ليعرف سبب إغراقه مما يؤذن بأنه لا صلة أصلا بين مؤمن وكافر، وبأنه لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

يقول الشيخ العدوي في التعليق على هذه الحادثة «تأمل ذلك الحكم العادل الذي فرق بين نوح وبين فلذة كبده، فجعل ولده في جملة الهالكين، وجعل نوحا في عداد المرسلين المجاهدين، وإنها لعبرة كبرى وآية عظمى أن يكون الوالد في ناحية والمولود في ناحية أخرى، الوالد في عداد الناجين والولد في جملة الهالكين، لأن الولد عمل غير صالح ولعل في هذه القصة عبرة لمن يعتمدون على أنسابهم ويتكلون على غير عملهم، وينسون قول الله تعالى ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى، ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى﴾[3].

واعتبر في هذا الباب أيضا بما كان بين ابراهيم خليل الرحمن وبين أبيه آزر حيث دعاه إلى الإيمان فأعرض، فلما تبين لإبراهيم أنه عدو لله وأنه مصر على الكفر وعبادة الأصنام أعلن البراءة منه ومن قومه وقال لهم في غير مواربة ﴿إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[4].

واعتبر كذلك بما كان من حرص رسول الله ﷺ على هداية عمه أبي

---

(١) سورة هود الآية ٤٥.

(٢) سورة هود الآية ٤٦.

(٣) سورة النجم الآيات ٣٦ ـ ٤١.

(٤) سورة الممتحنة الآية ٤.

طالب، لأنه كان يذود عنه ويحميه، ويحس نحوه باعظم الشفقة، فلم يغن عنه شيئاً، ومات أبو طالب كافراً، ولما استغفر له الرسول ﷺ بعد موته نهاه الله عن ذلك وأنزل عليه ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم﴾ [١].

ولما نزل عليه قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [٢] قام صلوات الله وسلامه عليه فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم» أخرجه مسلم من حديث عائشة.

وفي رواية أبي هريرة أنه دعا قريشاً فعم وخص فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

فلا ولاية بين مسلم وكافر، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ [٣] وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ [٤] وقال ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ [٥] وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ [٦] وقال ﴿لا تجد قوماً

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١٣ - ١١٤.
(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٤.
(٣) سورة الممتحنة الآية ١.
(٤) سورة المائدة الآية ٥١.
(٥) سورة آل عمران الآية ٢٨.
(٦) سورة التوبة الآية ٢٣.

يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ [1].

وهذه الآيات إنما تنهي عن اتخاذ غير المؤمنين بطانة وأصفياء وإيثار موالاتهم على مودة المؤمنين والإفضاء إليهم بأسرار الجماعة الإسلامية ولكنها لا تنهي عن مخالطتهم بالمعروف وحسن معاملتهم ورعاية العدل معهم كما قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [2] وفي الحديث الصحيح (خالط الناس ودينك لا تكلمنه) أي لا تجرحنه ولا تخالفنه.

سابعا: والعبرة الأخيرة والمهمة في قصة نوح عليه السلام هي أن العاقبة لأهل التوحيد والإيمان، وأنهم قد يمتحنون وتجري عليهم أنواع من البلاء ثم يكون النصر لهم. قال تعالى: ﴿ثم تنجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين﴾ [3] ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [4] وقال سبحانه ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [5].

وبالجملة فلا خير في الدنيا ولا في الآخرة إلا والتوحيد هو أصله والطريق إليه، ولا شر في الدنيا والآخرة إلا والشرك هو سببه والمفضي إليه. يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد:

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذاهم يشركون﴾ [6].

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢.
(٢) سورة الممتحنة الآية ٨.
(٣) سورة يونس الآية ١٠٣.
(٤) سورة الصافات الآية ١٧١.
(٥) سورة يوسف الآية ١١٠.
(٦) سورة العنكبوت الآية ٦٥.

وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدهما ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعدلهم في الآخرة ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك، وإدراك الغرق له لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل.

هذه سنة الله في عباده فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد. ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، وبالله التوفيق. ا هـ.

ما بعد نوح عليه السلام

بعد أن تم هلاك قوم نوح بالطوفان ونجى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين زالت بذلك عبادة الأصنام ورجعت الدولة للتوحيد ولم يبق على الأرض إلا مؤمن موحد. ويقال إن نوحاً عليه السلام ترك ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث، وأن أهل الأرض جميعاً بعد الطوفان كانوا من نسل هؤلاء الثلاثة، فسام أبو العرب والعبرانيين، ويافث أبو الترك، وحام أبو السودان والأحباش، ولعل مما يؤيد هذا قوله تعالى في شأن نوح عليه السلام ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ [1].

فهذه الآية تفيد أنه لم ينسل من ركاب السفينة إلا أبناء نوح عليه السلام، ولهذا كان يقال له أبو البشر الثاني. ولا بد أيضاً أن يكون قد مر وقت طويل قبل أن تكثر ذراري أبناء نوح ويتفرقوا في الأرض سعياً وراء الرزق ولا بد كذلك أنهم ظلوا مدة طويلة محافظين على ما ورثوه من نوح من التوحيد وشرائع العدل قبل أن يحصل منهم ما حصل من التغيير والتبديل، ولكننا لا ندري متى حدث الشرك بعد نوح فإن القرآن لم يحدثنا عن شيء من ذلك، وإنما حدثنا أن الله استخلف عادا في الأرض بعد قوم نوح كما قال تعالى على لسان هود عليه

---

(١) سورة الصافات الآية ٧٧.

السلام يخاطب قومه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ (١).

ولا ندري أيضاً كم مر من القرون بين نوح وهود عليهما السلام ولكن الآية تفيد أنه لم يكن بينهما رسول ويجيء دائماً في القران الكريم قصة عاد بعد قصة قوم نوح مما يدل على ما ذكرناه من أن عاد خلفت قوم نوح في الأرض، وأنه لم يكن ببنهما أمم، ولا يمكن أن يقال هنا أكثر من هذا، فإن هذه أمور موغلة في القدم وعصور ما قبل التاريخ، فلا يجوز الكلام فيها بأزيد مما جاء به النص والسكوت عما وراء ذلك مما لا يضير الجهل به، إذ لو كان فيه فائدة لذكره الله عز وجل لنا ولنأخذ الآن في بيان قصة هود عليه السلام.

قصة هود عليه السلام

أما هود فقد ذكر القرآن العظيم أنه أرسل إلى عاد وأن عادا كانت تسكن الأحقاف في الجنوب الشرقي من الجزيرة بين حضر موت وعمان، وأنهم بلغوا من القوة وشدة البأس وكثرة المال والولد ما لم تبلغه امة في الزمان الأول وأنهم كانوا يتفننون في ابتناء القصور الشامخة، ونحت البيوت في الجبال كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ (٢).

وكما قال الله عز وجل عنهم في سورة الفجر ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ (٣).

ولقد ذكرهم نبيهم هود نعمة الله عليهم ودعاهم إلى عبادة الله وحده الذي أمدهم بما يعلمون من أنعام، وبنين وجنات وعيون وحذرهم بطش الله ونقمته إن هم أصروا على كفرهم وعتوهم واقاموا على عبادة آلهتهم الباطلة وذكرهم أيضاً أنه لهم ناصح أمين لا يسألهم على هذه الدعوة أجرا وإنما أجره على الله

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩.
(٢) سورة الشعراء الآيات ١٢٨ ـ ١٣٠.
(٣) سورة الفجر الآيات ٦ ـ ٨.

الذي أرسله ووعدهم أن يغدق الله عليهم النعمة ويزيدهم قوة إلى قوتهم إن هم أطاعوه واتبعوه. فما كان من القوم إلا أن أجابوه على هذه الدعوة الكريمة بأخشن الجواب وردوا عليه بأغلظ الرد وقالوا له ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ [1] وقالوا له كذلك ﴿يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ [2].

وقال بعضهم لبعض متواصين بالكفر والطغيان ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين﴾ [3] وتعجلوا عذاب الله وقالوا له ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية.

قال تعالى: ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود﴾ [4].

وكما فعلنا في قصة نوح عليه السلام من استخلاص ما فيها من العبر والعظات كذلك نفعل هنا فنقول:

أولا: إن قول هود لقومه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ [4] يدل على أن ما جرى لقوم نوح قبلهم من الهلاك والإغراق كان لا يزال ماثلا في أذهانهم ومع ذلك لم

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٦.

(٢) سورة هود الآيتان ٥٣ - ٥٤.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٣٣.

(٤) سورة هود الآيتان ٥٩ - ٦٠.

(٥) سورة الأعراف الآية ٦٩.

ينتفعوا بهذه العبرة لأن حب الدنيا والأنس إلى ما هم فيه من شرف ونعيم أعماهم وأصمهم وحملهم على البطر والطغيان وهذه عادة الكثير من الناس في كل زمان ومكان إذا أعطوا شيئاً من الغنى والقوة نسوا كل واعظة وأمنوا كل جائحة، ولم يعتبروا بمصارع الذين كانوا من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (١).

ثانياً: إن الذين ناوأوا هوداً وكذبوه وحملوا لواء المعارضة لدعوته هم الملأ والأشراف من قومه كما كان الحال مع نوح تماماً وهذه سنة الله في الأولين والآخرين أن أهل الغنى والجاه هم العقبة الكؤود في طريق كل إصلاح لأنهم يخشون من هذه الثورات الإصلاحية التحررية أن تقضي على جاههم ونفوذهم، وأن تنبه الجماهير المستذلة إلى حقوقها المسلوبة ومصالحها المهدورة فتثور على هؤلاء المستكبرين وتنزلهم من علياء كبريائهم وصلفهم، وأما المستضعفون من الناس فهم الذي يقبلون على دعوات الإصلاح ويسارعون إلى اعتناقها لأنهم يرون فيها الخلاص من ربقة الذل والاستعباد.

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ (أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال له أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هكذا أتباع الرسل).

ثالثاً: إن هوداً عليه السلام قد وقف من قومه موقفاً غاية في الروعة حين قالوا له ﴿يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ (٢) فأعلن البراءة منهم ومن آلهتهم التي يدعون من دون الله وأشهد الله وأشهدهم على ذلك وتحداهم، وهم القوم الأشداء الغلاظ الأكباد أن يكيدوا له هم وآلهتهم وأن يجمعوا له كل ما عندهم من قوة ثم لا ينظرونه، ثم أعلمهم أنه متوكل على الله ربه وربهم الذي لا

---

(١) سورة العلق الآية ٦.

(٢) سورة هود الآيتان ٥٣ ـ ٥٤.

يعجزه شيء والذي هو آخذ بنواصي العباد كلهم وهو على صراط مستقيم، أي طريق العدل الذي لا ظلم فيه ولا جور.

فهذا الموقف من هود عليه السلام يشبه موقف نوح من قبل حيث قال لقومه كما ذكرنا سابقاً ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ (١).

وهكذا شأن الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام في ثقتهم بنصر الله وتوكلهم عليه وعدم اكتراثهم لما يرعد به أعداؤهم، قال تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾ (٢).

رابعاً: إن الله عز وجل ذكر قريشاً والعرب بما آل إليه أمر عاد، وحذرهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بهم من الهلاك والتباب، وذلك لأن ديار عاد كانت معروفة لهم، وكانوا يرون في أسفارهم مقدار ما حل بها من الدمار والخراب. قال تعالى: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون، فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم ذلـك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ (٣).

قصة صالح عليه السلام

تجيء قصة صالح في الترتيب القرآني عقيب قصة هود في جميع المواضع التي ذكرت فيها القصتان، ففي سورة الأعراف جاءت القصص على هذا الترتيب: نوح ثم هود ثم صالح.

بل قد جاء على لسان صالح عليه السلام في تلك السورة أنه قال لقومه

(١) سورة يونس الآية ٧١.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٩.
(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٦.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾[1].

وفي سورة (براءة) يقول سبحانه في صدد تذكير المنافقين بما حصل للمكذبين قبلهم «ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[2].

وكذلك الشأن في سورة هود والحجر والشعراء والقمر وغيرها مما يدل على أن الأمتين (عاد وثمود) كانتا متقارتين في الزمان، وأن ثمود كانت على علم بما جرى لأسلافهم عاد من العذاب والنكال.

وكانت ثمود تسكن الحجر بين الحجاز والشام، وكان من خبرهم أن الله عز وجل أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى الله ويذكرهم نعمة الله عليهم وكيف أنه استخلفهم بعد عاد وبوأهم في الأرض يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتاً فما كان من القوم إلا أن هزأوا بصالح عليه السلام ورموه بالسفه والجنون، وقالوا له: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾[3] وسألوه آية تدل على صدقه فأخذ عليهم العهد إن جاءهم بالآية ليؤمنن به فأعطوه على ذلك عهودهم واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة في الجبل ناقة ناتجاً ومعها فصيلها، فدعا الله عز وجل واستغاث به؛ فانتفخت الصخرة كأنها حامل متم ثم ارتجت وانشقت عن ناقة عظيمة الخلق فارهة المنظر فمشت يتبعها فصيلها وهم ينظرون إليها ومع ذلك بقوا مصرين على كفرهم، وظلموا بآية الله الواضحة الميصرة كما قال تعالى ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾[4] ولم يفوا لصالح عليه السلام بما كانوا قد وعدوه به من الإيمان عند مجيء الآية، فأوصاهم

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤

(٢) سورة هود الآية ٦٢.

(٣) سورة التوبة الآية ٧٠.

(٤) سورة الإسراء الآية ٥٩.

أن لا يقربوا ناقة الله، وأن يذروها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب يوم عظيم، وجعل لها يوماً لشربها ولهم شرب يوم معلوم، ولكن القوم ضاقوا بالناقة ذرعاً حيث كانت تنزل الوادي فتنفر منها دوابهم وأنعامهم وكانت تقتسم ماءهم على قلته، فانبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف فعقرها والقوم كلهم راضون بفعله، ولهذا نسب القرآن العقر إليهم جميعاً كما قال تعالى: ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ [1] فقال لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [2] فلما جاء أمر الله نجى صالحاً ومن معه من المؤمنين وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فتولى صالح عنهم وهو يقول ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين [3] ﴾ وهكذا كفرت ثمود بربها كما كفرت عاد قبلها، فنزل بها من العذاب ما نزل بها، سنة الله في القوم الظالمين، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هذا مجمل قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، أما ما يمكن أن نستخلصه من هذه القصة فهو:

أولاً: طغيان ثمود في أرض الله وإسرافها على نفسها بالكفر واقتراف الجرائم وعدم اعتبارها بما جرى على عاد قبلها من العذاب والهلاك، وهكذا يطغى الغني صاحبه ويحمله على البطر وينسيه مصارع من سبقه من الظلمة والمترفين.

ثانياً: ما بلغته ثمود من العتو والإستكبار عن قبول الحق والإنقياد له، فقد جاءهم صالح برسالة الله فكذبوا بها وسخروا منها، ولما طلبوا الآية واقترحوها، وجاءتهم في غاية القوة والظهور تعاموا عنها وجحدوا بها، ولم يكتفوا بذلك بل اجترأوا على عقرها مع علمهم عاقبة أمرهم، وتعجل نزول العذاب بهم ﴿وقالوا

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧.

(٢) سورة هود الآية ٦٥.

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٩.

يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾[1] ولم يكتفوا بذلك أيضاً بل دبروا قتل نبيهم صالح هو وأهله وتقاسموا على ذلك ودبروا حيلة يتخلصون بها من دم صالح، وهو أن يقولوا لوليه: ما شهدنا مهلك أهله.

قال الله تعالى من سورة النمل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون، قالوا اطيرنا بك وبمن معك، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنالصادقون، ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون؛ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[2].

ولقد ورد أن النبي ﷺ مر بديار ثمود وهو ذاهب إلى تبوك وأنه نهى عن الشرب من ماء بئرهم والدخول عليهم وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم».

وهكذا أضافت ثمود إلى سجل المشركين من بني آدم صفحة ملطخة بالظلم والوثنية والطغيان الكبير.

إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام

تأتي قصة إبراهيم خليل الرحمن في الترتيب القصصي للقرآن بعد قصة صالح عليه السلام؛ فقد جاء في سورة براءة قوله تعالى: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧.

(٢) سورة النمل الآيات ٤٥ - ٥٣.

(٣) سورة التوبة الآية ٧٠.

وفي سورة فاطر ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ (١).

ويعتبر إبراهيم عليه السلام ابتداء عهد جديد للتوحيد، فقد دعا إليه في قوة وحرارة بالغتين، وجاهر قومه وأباه بالعداوة وقال لهم في صراحة وجرأة ﴿إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾(٢).

وقال لهم كذلك ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ (٣).

ولما حاجه قومه في الله عز وجل وخوفوه عاقبة كفره بآلهتهم وشتمه لها، قال لهم موبخاً مسفهاً ﴿أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ (٤).

ولم يكتف إبراهيم بهذه الدعوة القولية إلى التوحيد بل بلغت به الجرأة وبيع النفس لله عز وجل أن كاد لهذه الأصنام، فاهتبل فرصة خروج القوم إلى عيد لهم فراغ إلى آلهتهم فقال لهم مستهزئاً ألا تأكلون مالكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، فلما رجع

(١) سورة فاطر الآيتان ٢٥ - ٢٦.
(٢) سورة الممتحنة الآية ٤.
(٣) سورة الشعراء الآيات ٧٥ - ٨٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ٨٠ - ٨٣.

القوم إلى مدينتهم ووجدوا أصنامهم على هذا النحو من التفتت والهوان، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

وهكذا انحصرت التهمة في إبراهيم ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ [1] وهكذا ضرب إبراهيم المثل في التضحية والإخلاص والتفاني في الدعوة إلى الله واحتمال كل ما يلقي في سبيلها، ولو كان التحريق بالنار واستحق بذلك ما أثنى الله به عليه في كتابه من قوله عز وجل ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [2].

وقوله ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [3].

ولم تكن أهمية الدور الذي قام به إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد قاصرة على ما بذله في حياته من جهد استحق به لقب الخلة للرحمن وتبوأ به منصب الإمامة في الدين بل إن أهميته لتظهر أكثر وأكثر في امتداد دعوته في الأجيال من بعده كما قال تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما

(١) سورة الأنبياء الآيات ٦١ ـ ٧٠.

(٢) سورة النحل الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) سورة البقرة الآيات ١٣٠ ـ ١٣٢.

تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾[1] وكما قال سبحانه ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾[2] فجميع الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام كلهم من ذريته ولهذا لقب بأبي الأنبياء .

ومن يوم أن غرس إبراهيم شجرة التوحيد وهي مورقة يانعة الثمار بفضل من تعهدها بعده بالسقي والإنماء من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

نعم كانت تذبل أحياناً ويجف ورقها وتتصوح أزهارها بسبب تفريط الأبناء وغفلتهم عن عهود الآباء ولكنها على كل حال بقيت تغالب عوامل الموت والفناء . ولقد جاء عليها بعد عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل وقت من الزمان كادت تذهب فيه وينمحي أثرها لولا أن تداركتها عناية الله بالرسالة الجامعة الخاتمة التي جاء بها محمد بن عبد الله النبي القرشي الأمي الهاشمي صلوات الله وسلامه عليه فبعث فيها الحياة قوية فتية ، وجدد من شبابها حتى استغلظت واستوت على سوقها وصارت وارفة الظلال ممتدة الأفياء أصلها ثابت وفرعها في السماء .

ذكر إبراهيم عليه السلام في الكتب المقدسة

اتفقت الأديان الثلاثة الكبرى اليهودية والنصرانية والإسلام على تقديس إبراهيم عليه السلام واحترامه والتباهي بالإنتساب إليه ، بل وصل الحد إلى ادعاء كل من اليهود والنصارى أن ابراهيم كان منهم حتى فضح القرآن جهلهم بقوله من سورة آل عمران ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. إن أولى الناس

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٧ .

يإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾[1].

وقد جاء ذكر الخليل عليه السلام في الكتب المقدسة الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وكلها تشير إلى مكانته العالية في الدين وتضفي عليه ما هو أهل له من المديح والثناء.

فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر (إن الرب قال لإبراهيم «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أربيك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك من يباركك، ومن يلعنك ألعنه وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض) فذهب إبراهيم كما قال له الرب وذهب معه لوط.

وفي الإصحاح السابع عشر جاء (ظهر الرب لإبرام وقال أنا الله القدير مر أمامي وكن كاملاً فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً، فخر إبرام ساجداً وتكلم الله معه قائلاً أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً ومنك ملوك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم) إلى أن يقول:

«وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ما أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة».

وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين عند ذكر قصة الفداء (ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك ووحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء).

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٦٥ - ٦٨.

وفي العهد القديم كذلك عدا ما ذكرنا إشارات كثيرة إلى إبراهيم عليه السلام منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ومنها ما يصفه ويصف بعض أخباره. وقد جاء وصف إبراهيم بالخلة في كتاب الأيام الثاني حيث يقول في الإصحاح العشرين «ألست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض أمام شعب إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد».

وجاء ذكر إبراهيم أيضاً في المصادر المسيحية، وإن كان ذلك على ندرة ففي الإصحاح الثامن من إنجيل متى يقول المسيح عليه السلام (الحق أقول لكم لم أجد في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم واسحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية).

وفي الإصحاح الثاني من إنجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به (إنكم إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم، فأجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط فكيف تقول إنكم تصيرون أحراراً؟ قال الحق أقول لكم إن كل من يعمل بالخطيئة فهو عبد للخطيئة والعبد لا يبقى في البيت أبداً، أما الابن فيبقى للأبد، ثم قال لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.

وأما القرآن العظيم فقد أكثر جداً من ذكر الخليل إبراهيم بعبارات تفيض ببالغ الثناء وفريد التكريم.

قال تعالى من سورة البقرة ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال إبراهيم رب أجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ

يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (١).

وقال سبحانه في مكان آخر من هذه السورة إخباراً عن محاجة إبراهيم لنمروذ بن كنعان ﴿ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٢).

وقال جل شأنه من سورة آل عمران ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية. بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ (٣).

وقال في مكان آخر منها ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (٤).

وقال تعالى من سورة الأنعام ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (٥) الآيات إلى قوله ﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٤ ـ ١٣٣.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨.
(٣) سورة آل عمران الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.
(٤) سورة آل عمران الآيتان ٩٦ ـ ٩٧.
(٥) سورة الأنعام الآيتان ٧٤ ـ ٧٥.
(٦) سورة الأنعام الآية ٨٣.

وورد ذكر ابراهيم كذلك في سور يوسف وابراهيم والحجر والنحل ومريم والأنبياء والحج والشعراء والعنكبوت والصافات وص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والممتحنة الأعلى.

وهكذا يحفل القرآن بذكر أبي الأنبياء ابراهيم، ويجعله في مكان القدوة والإمامة في الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه والمعاداة فيه ويجعله أمة وحده في خصال الخير كلها.

هل شك إبراهيم عليه السلام

يقول الله تعالى في سور الأنعام ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [1].

ظاهر هذه الآيات يفيد أن إبراهيم عليه السلام نظر في هذه الأجرام العلوية التي كان يعبدها قومه ليمتحن صلاحيتها للإلهية، فلما تبين له بطلان إلهيتها بسبب أفولها وغيابها أعلن البراءة منها، ومعنى ذلك أنه كان في شك من أمرها أولا، ومعلوم أن الشك أخو الكفر، فقد أخبر الله عن الكفار أنهم قالوا لرسلهم ﴿وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ [2] فعبروا عن كفرهم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام بالشك والارتياب فيه وأخبر الله عن قوم صالح أنهم قالوا له ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ [3].

وقال تعالى في شأن الكفار المنكرين للبعث ﴿بل إدارك علمهم في الآخرة بل

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٥ - ٧٩.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٩.

(٣) سورة هود الآية ٦٢.

هم في شك منها بل هم منها عمون﴾[1] .

فكيف يعترى الشك مقام خليل الرحمن مع ما هو معلوم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر قبل الرسالة وبعدها، وأنهم ينشأون على الفطرة السليمة التي هي الدين القيم والتوحيد الخالص.

قال ابن كثير رحمه الله «وقد اختلف المفسرون في هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة، فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ما يقتضى أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلا بقوله ﴿لئن لم يهدني ربي﴾[2] ثم قال: والحق أن ابراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذه المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السبعة السيارة» الخ.

وقال صاحب صفوة البيان، عند تفسير قوله تعالى: ﴿قال هذا ربي﴾[3] أنه قال هذا على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليها الإبطال ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال، وكذا يقال فيما بعده.

ويقول صاحب كتاب «دعوة الرسل» تأمل كيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يحج قومه بطريق الإستدراج فحينما غطى عليه الليل رأى كوكباً فقال لقومه بأسلوب المتهكم ﴿هذا ربي﴾[2] فلما غاب ذلك الكوكب قال ﴿لا أحب الآفلين﴾[4] .

---

(١) سورة النمل الآية ٦٦.

(٢) سورة الأنعام الآية ٧٧.

(٣) سورة الأنعام الآية ٧٧.

(٤) سورة الأنعام الآية ٧٦.

أي فلا أعبد إلهاً يحضر أحياناً ويغيب أحيانا ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ [1] وكيف أعبد إلها يضيء بعض الوقت ويغيب البعض الآخر، ومن الذي يهديني من الضلال إذا هو غاب؟

﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ [2] لأن ضوءها أشد ونفعها أشمل وأعم ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [3] وهي مهارة من نبي الله ابراهيم واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحجة ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم، انتقل بهم من كوكب إلى كوكب وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفا لا يصلح واحد منها أن يكون إلها معبوداً لأنها تغيب وتحضر.

وهذه النقول كلها تفيد أنه قال ذلك في معرض المناظرة لقومه وإلزامهم الحجة على بطلان عبادتهم لهذه الآلهة الآفلة المتغيرة. ولكن إذا قيل إن هذا الكلام منه كان على جهة النظر والاستدلال يبقي الإشكال، وقد أجاب عنه صاحب المواقف بأن هذه القول منه كان قبل تمام النظر في معرفة الله وكان قبل النبوة، ولكن هذا لا يحل المشكلة إذ هي تسليم بحصول الشك من إبراهيم إلا أنه كان قبل النبوة، وقد قلنا إن ذلك مستحيل على الأنبياء قبل النبوة وبعدها.

وأحسن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن ابراهيم عليه السلام أراد اليقين بضم نظر العقل إلى نور الفطرة، فأخذ يسائل نفسه كلما طلع كوكب من هذه الكواكب: أهذا ربي كما يدعى ذلك أبي وقومي، فيتجلى له الحق واضحاً حين يراها تتهاوى واحدا بعد الآخر وتغيب وراء الأفق البعيد، فاطمأنت عند ذلك نفسه وازداد يقينه بما كان قد عرفه قبل ذلك عن طريق الإلهام والفطرة فور

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ٧٩.

(٣) سورة الأنعام الآيتان ٧٨ ـ ٧٩.

كقوله تعالى عن ابراهيم ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [1]

ديانة قوم ابراهيم

المعروف أن قوم ابراهيم عليه السلام كانوا صابئة، يعبدون الكواكب والنجوم ويعتقدون أنها أجسام للملائكة، ويتخذون لها صورا في الأرض من التماثيل والأصنام يعبدونها ليتقربوا بها إلى الله عز وجل، وكانت شعائر عبادتهم مزيجاً من شتى الديانات حتى انه قلما يوجد دين من الأديان المعروفة إلا وللصابئة شبه به في بعض الشعائر. ويقول الأستاذ عباس العقاد في التعليل لتلك المشابهة في كتابه المشهور (أبو الأنبياء) «إن مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم في طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الإقليم أو يقيمون فيه، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء».

فمن مشابهتهم للبراهمة أنهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون إذا لمسوا غيرهم في حالة العبادة.

ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد الأورفية أو السرية أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان ويخفون شعائر دينهم عمن ليس منهم ويقتسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية ويعتقدون أن لكل شيء ظاهرا وباطناً، ولكل مخلوق في العلانية صورة محجوبة في عالم الغيب حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن.

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون إلى قطب الشمال وإلى الكواكب عامة. ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعماد ويجلون يوحنا المعمدان أو يحي المغتسل، وأن كان التعميد عندهم أعمم مما هو عند المسيحية حيث يحتاجون كل يوم إلى العماد وإلى التطهر بالماء.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات في اليوم ويقولون إنها فرضت عليهم سبعاً ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها في بعض واكتفى منها بثلاث، ولكنهم لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة ويعرفون نواقض الوضوء.

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم في ختام السنة كيوم اليهود، ولكنهم يحرمون الختان ولا يقيمون لهم هيكلا مبنيا وهم ينكرون الأنبياء ويقولون إن الله لا يخاطب أحداً من البشر وانما خلق الله الروحانيات (الملائكة) ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة من هذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون، صنعوا لها صورا من الأوثان وجعلوا اتجاههم إلى نجم القطب لأنه ثابت في مكانه.

والمشهور عن الصابئة أنهم يوقرون الكعبة في مكة ويعتقدون أنها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه الصلاة والسلام في كتبهم ويسمونه عندهم ملك العرب لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء.

ويقول الأستاذ العقاد الذي نقلنا من كتابه هذه الجملة من عقائد الصابئة، في كتابه المذكور ما نصه: (ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم لأنهم يصطنعون التقية ويوجبونها).

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء في سورة البقرة ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [1].

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الإسلامية، ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه ويقولون إن الكواكب ملائكة

---

(١) سورة البقرة الآية ٦٢.

نورانية، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الإسلام، ولا بد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدي الناس إلى الحق، لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا دعاها بأسمائها فوجدت ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بواسطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية، وتؤثره نعمة الله؟ اهـ.

مواقف للخليل عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد

إن المتأمل في حياة الخليل ابراهيم عليه السلام يجدها كلها سلسلة متصلة الحلقات من النضال والثورة على عقائد قومه ومعبوداتهم ويجد له مواقف في غاية الروعة في الجهر بدعوة الحق، وإفحام المعاندين لها بالحجج القوية والعبارات الأخاذة.

فمن ذلك ما حكاه الله عز وجل في سورة البقرة من محاجته لنمروذ الطاغية ملك الكنعانيين حين سأله عن ربه الذي يعبده ويدعو إلى عبادته، قال ابراهيم ﴿ربي الذي يحي ويميت﴾ [1] فقال له الملك في حمقه وعتوه ﴿أنا أحي وأميت﴾ [2] فيقال إنه دعا برجلين وأمر بقتلها، ثم عفا عن أحدهما وقتل الآخر. فل يشغل ابراهيم نفسه بالكشف عن مغالطة الملك الجاهل وتلبيسه ولكنه انتقل من قوة إلى حجة أخرى لا يستطيع لها دفعاً ولا يملك معها إلا التسليم والإذعان فقال له ابراهيم ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [3].

ومن ذلك ما حكاه الله عز وجل في سورة مريم من نصيحته لأبيه آزر تلك النصحية التي تفيض إخلاصاً وشفقة فهو يقول له فيها: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا. يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨.

فاتبعني أهدك صراطاً) سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبــت إني أخـاف أن يمسـك عـذاب مـن الرحمن فتكـون للشيطـان ولياً﴾ [1].

ولما قال له أبوه في حدة وغلظة ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني ملياً﴾ [2].

لم يكن منه عليه السلام إلا أن قال له في لطف وأدب ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ [3].

ومن ذلك قوله لقومه ما حكاه الله في سورة الشعراء ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [4].

فذكر في هذه الآيات (ما يوجب عبادته لله وحده من كونه هو الذي خلقه وهداه وأطعمه وسقاه وإذا مرض شفاه).

ومن ذلك قوله لهم في سورة العنكبوت ﴿اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثاناً. وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ [5] ولما كادوا له بالإلقاء في النار ونجاه الله عز وجل منها قال لهم:

﴿إنما اتخذتم من دون الله أو ثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة

---

(١) سورة مريم الآيات ٤٢ ـ ٤٥.
(٢) سورة مريم الآية ٤٦.
(٣) سورة مريم الآيتان ٤٧ ـ ٤٨.
(٤) سورة الشعراء الآيات ٧٥ ـ ٨٢.
(٥) سورة العنكبوت الآيتان ١٦ ـ ١٧.

يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ [1]
فسلام على إبراهيم داعيا إلى التوحيد والدين القويم.

قصة بناء البيت الحرام ليكون مثابة لأهل التوحيد

كانت سارة زوج إبراهيم وإبنة عمه عقيا لا تلد، وكان إبراهيم قد قدم بها إلى مصر؛ ونمى إلى فرعون ما عليه السيدة سارة من جمال بارع، فأرسل من يأتيه بها فقال لها إبراهيم: إذا سئلت عني فقولي إنه أخي، لأنهم إن علموا أنك زوجتي يقتلوني لتخلصي لهم، وهم فرعون بالسيدة ليقربها مرارا، وفي كل مرة يرد الله كيده في نحره، فلما علم أن لا سبيل له إليها ردها إلى ابراهيم مكرمة وأتحفها بالهدايا الثمينة وأخدمها جارية تسمى هاجر.

ولما رأت سارة حنين زوجها إلى الولد وهبته هاجر ليستولدها فولدت له إسماعيل عليه السلام، ورأت سارة مدى تعلق إبراهيم بولده وبأمه هاجر، فأخذتها الغيرة وطلبت إلى إبراهيم أن يذهب بها بعيداً عنها فأمره الله عز وجل أن يذهب بها إلى برية فاران التي هي جبال مكة، ولم يكن بها حينئذ أحد من الناس، وترك لها ابراهيم بعض الزاد والماء وقفل راجعا، فتبعته هاجر تناديه يا ابراهيم إلى من تتركنا في هذا المكان القفر؟ فلا يلتفت إليها، وكررت عليه السؤال وهو ماض في طريقه لا يجيبها، فقالت له الله أمرك بهذا، قال نعم، فقالت إذاً لا يضيعنا.

ولما بعد إبراهيم عنها بحيث لا يريانه توجه إلى الله بهذا الدعاء الضارع الذليل ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [2] فاستجاب الله دعاء خليله إبراهيم، وأمره أن يبني في هذا المكان بيتاً يكون مثابة للناس وأمناً، وأن يؤذن في الناس بالحج يأتوه رجالاً وعلى كل

---

(1) سورة العنكبوت الآية ٢٥. (2) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

ضامر يأتين من كل فج عميق.

ولما نفذ ما لدي هاجر من ماء وزاد وأدرك اسماعيل العطش ذهبت أمه تبحث له عن ماء، فأخذت تصعد الصفا مرة ثم تنزل فتصعد المروة تنظر هل ترى من البشر أحداً، فلما يئست من غوث المخلوق رجعت إلى ولدها وهي مقدرة أنهما هالكان لا محالة فوجدت عنده عين ماء يفيض ماؤها، كان جبريل عليه السلام قد نزل فحفرها بجناحه، ففرحت هاجر بغوث الله، وأخذت تزم الماء وتحوطه.

وجاء جماعة من جرهم فأستأذنوا هاجر في أن ينزلوا قريباً من الماء فأذنت لهم، وكبر إسماعيل وشب عن الطوق، وكان أبوه يأتي ليزوره هو وأمه بين الحين والحين، وفي إحدى هذه المرات رأى في منامه أنه يؤمر بذبحه، ورؤيا الأنبياء حق، فقام إبراهيم من فوره يقص على ابنه رؤياه ويقول له: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ [1] فما كان من الولد إلا التسليم والإذعان لأمر الله والحث لأبيه على فعل ما أمر به فقال له: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم﴾ [2].

وفي مرة أخرى من هذه المرات أمر الله عز وجل إبراهيم أن يبني له في هذا المكان بيتاً، وبوأ له مكان البيت وحدد معالمه، كما قال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع والسجود﴾ [3] فأخبر بذلك ولده إسماعيل ليكون عوناً له على إتمام هذا العمل الجليل، فأخذ إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة حتى رفعا قواعد البيت، ثم توجها إلى الله عز وجل بهذا الدعاء:

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢.

(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٢ - ١٠٧.

(٣) سورة الحج الآية ٢٦.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١).

وقد استجاب الله دعاء خليله، فبعث في ولد اسماعيل أكرم رسله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل وطموس من السبل داعياً إلى الحنيفية السمحة والتوحيد الخالص، ووعده أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون.

لوط عليه السلام

كان لوط ابن أخي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وقد آمن له وهاجر معه من كور الكلدانين إلى أرض كنعان، وقد بعثه الله إلى أهل سدوم وكانت قرية من الأردن، وكان أهلها يعملون الخبائث ويأتون الذاكـران من الناس، ولم يسبقهم إلى هذه الفاحشة أحد من العالمين، فدعاهم أخوهم لوط إلى الله عز وجل، ونهاهم عن فعل الفاحشة وإتيان المنكر في ناديهم فما كان جواب قومه على هذه الدعوة الخالصة والنصيحة المشفقة إلا أن هددوه بإخراجه من القرية، وقالوا له: ﴿لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ (٢) فأعلن لوط البراءة منهم، وقال ﴿إني لعملكم من القالين﴾ (٣) ودعا الله عز وجل أن ينجيه وأهله مما يعملون فنجاه الله وأهله أجمعين إلا أمرأته فإنها كانت على دين قومها، وكانت تخونه وتدلهم على أضيافه، فكانت من الغابرين، أي الباقين في العذاب، فلما أراد الله عز وجل إهلاكهم أرسل الله إليهم جنداً من الملائكة ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين.

ومرت الرسل أولاً على إبراهيم يحملون إليه بشرى هبة الله له ولداً من سارة

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٦٧.

(٣) سورة الشعراء الآية ١٦٨.

وهو إسحاق عليه السلام، فعجب إبراهيم وعجبت أمرأته لهذه البشرى التي جاءت في إبان العقم والكبر، وقالت سارة: ﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لـشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾[1]. وفطن إبراهيم إلى أن الرسل قد جاءوا لمهمة أخرى غير البشارة بإسحاق، فسألهم: ما خطبكم؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط، فأخذ يجادلهم في هذا ويقول لهم: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجيه وأهله أجمعين إلا أمرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ومازال إبراهيم يجادل الرسل، يحاول صرفهم عما أرسلوا به، حتى جاءه النداء من الله عز وجل ﴿يا إبراهيم أعرض عن هـذا إنـه قـد جـاء أمـر ربـك وإنهم آتيهـم عـذاب غير مردود﴾[2].

وجاءت الرسل لوطاً فسيء بهم وضاق بهم ذرعاً، لأنهم جاءوا على هيئة غلمان مرد، وهرولت أمرأته إلى قومها تخبرهم بذلك الصيد الثمين، فجاءوا يهرعون إليه، واشتد الأمر عن لوط عليه السلام حتى صار يعرض عليهم بناته ويقول لهم﴿يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيقي، أليس منكم رجل رشيد؟ قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾[3].

فلما سمعت الرسل مناقشة لوط لقومه وإباءهم عليه طمأنوه وقالوا له:﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك إنه مصيبها ما أصابهم﴾[4] وأخبروه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. ولما جاء أمر الله جعل عالي مدينتهم سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل وتم هلاك القوم الظالمين الذين أضافوا إلى سجل الإنسانية صفحة ملطخة بالعار والخلق المشين وصاروا مثلاً يضرب لكل من يفعل مثل فعلتهم إلى يوم الدين.

---

(١) سورة هود الآيتان ٧٢ - ٧٣.
(٢) سورة هود الآية ٧٦.
(٣) سورة هود الآيتان ٧٨ - ٧٩.
(٤) سورة هود الآية ٨١.

ما بعد إبراهيم عليه السلام

مات إبراهيم عليه السلام تاركاً من ورائه ولدين هما (إسماعيل) من هاجر المصرية، وقد أسكنه كما تقدم بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام في برية فاران.

وأما إسحاق فمن زوجته سارة، وقد بقي في فلسطين.

وسنرجىء الكلام على إسماعيل عليه السلام، ليكون الحديث عنه موصولاً بالحديث عن الدعوة الإسلامية التي قام بها واحد من ذريته، وهو محمد ﷺ.

أما إسحاق فقد ورد ذكره في القرآن مقروناً غالباً بأبيه إبراهيم مما يدل على أن إبراهيم قد عاش حتى كبر إسحاق وبلغ مبلغ الرجال.

ورد في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين أن إبراهيم لما شاخ وتقدمت به الأيام وباركه الرب في كل شيء، قال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له (ضع يدك تحت فخذي فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق)[1].

وقد وردت البشارة بإسحاق في عدة سور من القرآن الكريم ففي سورة هود عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم

---

(١) ينبغي أن يعلم أن ذكر هذه الروايات الإسرائيلية لا يقصد منه اعتقاد مضمونها، فإننا لا ندري أصادقة هي أم كاذبة بل نحن نجزم بكذب ما كان منها مخالفاً لما عندنا.

أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ [١].

وفي سورة الحجر يقول جل شأنه: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم، قال أبشرتموني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ [٢].

وفي سورة الذاريات يقول سبحانه: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت أمرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ [٣].

ووردت البشارة به أيضاً في كتب (العهد القديم) بما يقرب مما جاء في القرآن العظيم.

جاء في الإصحاح السابع عشر: «وقال الله لإبراهيم: ساراى أمرأتك لا تدع اسمها ساراي، بل أسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً، فخر إبراهيم ساجداً وضحك، وقال في قلبه هل يولد لابن مائة سنة، وهل تلد سارة وهي بنت تسعين وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله، بل سارة امرأتك تلد لك أبناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي له عهداً أبدياً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثنى عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة، ولكن عهدي أقيمه لإسحاق، الذي تلده لك سارة».

ثم جاء في الإصحاح الحادي والعشرين أن سارة ولدت إسحاق وختنه إبراهيم وهو ابن ثمانية أيام، وكان إبراهيم قد أوفى على المائة والذي يهمنا هنا من أمر

(١) سورة هود الآيات ٦٩ ـ ٧٣.

(٢) سورة الحجر الآيات ٥١ ـ ٥٦.

(٣) سورة الذاريات الآيات ٢٤ ـ ٣٠.

إسحاق عليه السلام أنه ورث أباه إبراهيم في حمل رسالات الله والدعوة إلى توحيده كما قال تعالى ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ (١).

وورد ذكره في جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بما أنزل إليهم قال تعالى من سورة البقرة:

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (٢).

وورد ذكره أيضاً هو وأبيه إبراهيم وولده يعقوب في عداد الرسل الذين أمر النبي ﷺ أن يذكرهم لما لهم من شأن عظيم في مقام الدعوة والقدوة الحسنة فقال تعالى من سورة ص: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ (٣).

يعقوب عليه السلام

كان يعقوب ولداً لإسحق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة وأتم التسليم.

ولقد جاءت البشارة به مع البشارة بأبيه أسحاق؛ قال تعالى من سورة هود ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (٤) وقال من سورة الإنعام، ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا﴾ (٥).

وقال من سورة الأنبياء ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١١٢ - ١١٣.
(٢) سورة البقرة الآية ١٣٦.
(٣) سورة ص الآيات ٤٥ - ٤٧.
(٤) سورة هود الآية ٧١.
(٥) سورة الأنعام الآية ٨٤.

صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (١).

ويعقوب عليه السلام هو إسرائيل الذي ينسب إليه ذلك الشعب الذي عرف في التاريخ باسم شعب اسرائيل، والذي ذكر لنا القرآن الكريم الكثير من جرائمه لاسيما في سورتي البقرة والمائدة.

وتذكر المصادر الإسرائيلية قصة عجيبة في سبب تسميته بإسرائيل وهو أنه بعد عودته من العراق بقي وحده، وجاءه رجل فصارعه حتى الفجر وهو لا يقدر عليه فضرب حق فخذ يعقوب فخلعه وقال له أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال له يعقوب لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما إسمك؟ فقال يعقوب، فقال له لا يدعى إسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت».

وتذكر لنا سورة يوسف عليه السلام تلك المأساة العنيفة التي عاشها يعقوب عليه السلام منذ مكر إخوة يوسف به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب فقد حزن يعقوب على ولده حزناً صار مضرب المثل وبكاه حتى أبيضت عيناه وزاده حزناً على حزنه ونكافرحه وأدماه ذهابهم بأخيه الآخر بنيامين الذي أحتجزه يوسف عليه السلام بتلك الحيلة البارعة وهو دسه صواع الملك في رحل أخيه ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين. قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾ (٢)

وتذكر السورة أيضاً من صبره على المحنة وإخلاصه الشكوى إلى الله واستعانته به على كيد أبنائه وعدم يأسه من روحه ما هو جدير برسول كريم من

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٧٢ - ٧٣.

(٢) سورة يوسف الآيات ٧٠ - ٧٦.

نسل إسحاق بن إبراهيم.

ولقد جرى يعقوب عليه السلام على سنة أبويه إبراهيم وإسحاق في التمسك بأهداب التوحيد وتوصية بنيه بالثبات عليه وقال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً، ونحن له مسلمون﴾ (1).

وعلى الجملة فقد كان يعقوب عليه السلام يمثل حلقة من حلقات الكفاح في سبيل التوحيد، كما كان أبا ينتسب إليه هذا الشعب الكبير الذي لعب دوراً كبيراً على مسرح الحياة، وتقلبت عليه أطوار عديدة تأرجح فيها بين الوثنية والتوحيد وبعثت فيه كثرة كاثرة من الرسل والأنبياء الذين كانوا حراساً أمناء على عهد الله وعلى توجيه هذا الشعب العنيد لحمايته من الشطط والضلال والإنحراف.

يوسف الصديق عليه السلام

روى أن النبي ﷺ سئل من أكرم الناس؟ فقال يوسف: نبي الله بن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم خليل الله.

وفي رواية: الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهو سليل هؤلاء الأنبياء الكبار، فلا عجب إن كان على غرارهم في الصدق والإخلاص وشدة الحماس في الدعوة إلى التوحيد وإنتهاز كل فرصة لبث هذه الدعوة وتبليغها.

وبظهور يوسف عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة في الدعوة إلى عبادة الله

(1) سورة البقرة الآيات ١٣٠ ـ ١٣٣.

الواحد يكون مركزها مصر بدلاً من فلسطين. فقد جاء يوسف إلى مصر وهو غلام صغير حين كاد له إخوته وألقوه في غيابة الجب وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ليستقي لهم من البئر فتعلق يوسف برشاء الدلو وخرج، وما أن رآه الرجل حتى هتف يا بشرى هذا غلام، وأسروه بضاعة وعرضوه للبيع في أسواق مصر فبيع بثمن بخس، دراهم معدودة، وكان الذي اشتراه هو عزيز مصر الذي أوصى به أمرأته خيراً، وقال لها﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾[1].

وقد امتحن الصديق في بيت هذا الرجل امتحاناً رهيباً حيث راودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت عليه الأبواب وقالت: هيت لك، ولكن الصديق يجيبها بجواب حاسم يقطع طمعها فيه ويرجع إليها ما عزب من ضميرها فيقول ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾[2].

ولقد همت به هذه المرأة لكي تحمله قسراً على ما يريد وكان هو في مكنته أن يهم بها لولا ما أراه الله من البرهان على قبح ما دعته إليه، قال تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[3].

ثم انفلت منها هارباً نحو الباب فجرت وراءه وأمسكت بذيل قميصه فقدته، وألفيا سيدها لدى الباب فابتدرته المرأة المغيظة المحنقة بقولها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾[4] تريد دفع التهمة عن نفسها وتحميلها يوسف عليه السلام ثم تقترح إنزال العقوبة به فلم يسع الصديق إلا أن يدفع التهمة عن نفسه ويقول: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾[5] ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾[5].

وكان بعد ذلك ما كان من إيداعه السجن بعد ظهور براءته ودخول فتيين

(١) سورة يوسف الآية ٢١.
(٢) سورة يوسف الآية ٢٣.
(٣) سورة يوسف الآية ٢٤.
(٤) سورة يوسف الآية ٢٥.
(٥) سورة الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

معه السجن وطلبهما منه أن يعبر لهما عن رؤياهما وتحدثه إليهما بما أنعم الله به عليه من علم تعبير الرؤيا وهجر الملل الباطلة والتمسك بدين آبائه وأجداده في التوحيد والإيمان ووعظه لهما بأن يسلكا سبيله في ذلك تاركين عبادة هذه الأرباب المتفرقة التي لا حقيقة لها، وانما هي أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان ثم تعبيره لهما رؤياهما بعد ذلك بقوله: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [1] ثم قوله للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ونسيانه ذلك، فلبث الصديق في السجن بضع سنين.

ثم ما كان من تعبيره رؤيا الملك واستدعاء الملك إياه وطلبه عليه السلام من الملك سؤال النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لمشاهدة يوسف وافتتانهن به وشهادتهن ليوسف بالعصمة ونفيهن عنه التهمة واعتراف إمرأة العزيز على نفسها بأنها هي التي راودته عن نفسه مما جعل العزيز يكبره ويزيد في تقريبه ويقول له: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [2].

ثم ما كان من تمكين الله ليوسف في أرض مصر حيث جعله الملك على خزائن الأرض، ومن مجيء إخوته إلى مصر يلتمسون الميرة لما قحطوا. ومن احتياله عليهم حتى جاءوا له بأخيه. ومن استبقائه أخاه معه في مصر بتلك الحيلة البارعة التي أشرنا إليها آنفا في ترجمة أبيه يعقوب، ومن إلحاح أخوته عليه في أن يأخذ أحدهم مكانه، لأن له أباً شيخاً كبيراً، وقد أوصاهم بالمحافظة عليه وقال لهم: ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتيني به إلا أن يحاط بكم﴾ [3].

ثم ما كان من رفض يوسف عليه السلام لما عرضوه عليه بقوله ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ [4] ومن انصرافهم من عنده يائسين وامتناع أخيهم الأكبر عن الرحيل معهم، ورجوعهم إلى أبيهم في فلسطين بدون أخيهم

---

(١) سورة يوسف الآية ٤١.

(٢) سورة يوسف الآية ٥٤.

(٣) سورة يوسف الآية ٦٦.

(٤) سورة يوسف الآية ٧٩.

بنيامين، وقولهم له لما سألهم عنه: ﴿إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ [(١)] واتهام أبيهم لهم بالتفريط في حق أخيهم كما فرطوا في يوسف من قبل، وتذكره ليوسف وأخيه وشدة بكائه حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ورجائه في الله أن يرد عليه يوسف وأخاه، وطلبه من بنيه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه ولا ييأسوا من روح الله.

ثم ما كان من عودتهم إلى مصر ودخولهم على يوسف عليه السلام وقولهم له: ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين﴾ [(٢)] ورده عليهم بقوله ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ [(٢)] وإجابتهم له مستفهمين ﴿إنك لأنت يوسف؟﴾ [(٢)] وتعريف يوسف إياهم بنفسه حين واتت الفرصة ووصلت المحنة إلى غايتها بقوله ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [(٢)].

ثم طلبهم منه أن يستغفر لهم معترفين بخطيئتهم، ووعده إياهم بأن يستغفر لهم الله عز وجل. وأمره لهم أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه ويلقوه على وجهه ليرتد بصيراً.

ثم ما كان من مجيء يعقوب وآله جميعاً إلى مصر وأيواء يوسف أبويه إليه وقوله لأهله ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ [(٣)] ورفعه أبويه على العرش وخرورهم له سجداً وتذكيره لأبيه بالرؤيا التي رآها من قبل أن تجري عليه هذه المحن كلها، وقوله له ﴿يا أبت هذا تاويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ [(٤)].

---

(١) سورة يوسف الآيتان ٨١ ـ ٨٢.
(٢) سورة يوسف الآيات ٨٨ ـ ٩٠.
(٣) سورة يوسف الآية ٩٩.
(٤) سورة يوسف الآية ١٠٠.

هذا مجمل قصة يوسف عليه السلام كما جاءت في السورة الكريمة التي سميت باسمه. تظهرنا على ما تقلب فيه الصديق من محن وما تعرض له من فتن وما جرى عليه من نعمى الحياة وبؤسها. وما قاساه من كيد إخوته له أولا، ثم كيد امرأة العزيز له ثانياً، ثم كيد النسوة اللائي قطعن أيديهن حين رأينه ثالثاً، ثم إيداعه السجن بلا ذنب ولا جريرة، وهو في كل ذلك صابر كريم النفس قوي على الأحداث ممتنع على الفتن، فاستحق لقب الصديق بجدارة واستأهل الثناء عليه من الله عز وجل بقوله ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [1].

وإذا كان مما لا شك فيه أن يوسف عليه السلام كان نبيا ورسولا فينبغي أن لا يشك أيضا في أن مجال رسالته كان في مصر فإنه لم يعرف فيما نقل إلينا من أخباره أنه خرج منها بل الثابت أنه ظل بها إلى أن مات ودفن بها.

ولقد جاءت آية صريحة من سورة غافر تدل على أن رسالته كانت في أهل مصر. وهي قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون يخاطب قومه ويحضهم على الإيمان بموسى عليه السلام ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ [2].

ولكن متى أرسل يوسف عليه السلام؟ ليس هناك في الواقع نص يحدد لنا بد إرساله.

وأما قوله تعالى في أول السورة بعد ما ألقاه إخوته في غيابة الجب ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [3] فنحن نستبعد أن يكون هذا وحي نبوة، لأنه في هذا الوقت كان غلاماً حدثا لم يبلغ الحلم، وإن كان قد ناهز، فلعل هذا الوحي كان من قبيل الإلهام كما في وحي الله لأم موسى عليه

(١) سورة يوسف الآية ٢٤.
(٢) سورة غافر الآية ٣٤.
(٣) سورة يوسف الآية ١٥.

السلام ﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ [1] الآية، أو لعله من قبيل الإرهاص الذي يسمع فيه النبي قبل النبوة الكلمة والكلمتين من غير أن يرى شخصاً، كما كان يحدث لنبينا ﷺ. والذي نرجحه أن يكون يوسف عليه السلام قد أرسل في الفترة التي قضاها في السجن، فإن وجوده في السجن أفرغ لقلبه، فيكون أكثر تهيأ لتلقي الرسالة كما حصل لنبينا ﷺ قبيل البعثة من حبه الخلاء وتعبده في الغار، ولأن في إكرامه بالرسالة في ذلك الوقت تعوضا له عما كان يلقاه في سجنه من الوحشة والقسوة.

ولأن كلامه مع صاحبي السجن اللذين دخلا معه من تعبيره لرؤيا كل منهما ودعوته إياهما إلى التوحيد، وقوله لهما ذلكما مما علمني ربي، يكاد يكون صريحا في الدلالة على حصول النبوة له.

وإليك هذه الآيات الكريمة من سورة يوسف، فتدبرها عسى أن تجد فيها شاهداً قويا على ما ذهبنا إليه، قال تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان، قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تاكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [2].

فانظر كيف انقلب الصديق في السجن واعظا يدعو الناس إلى ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، تلك الملة الحنيفية التي تقوم على التوحيد الخالص

---

(١) سورة القصص الآية ٧.
(٢) سورة يوسف الآيات ٣٦ ـ ٤٠.

والبراءة من الشرك وأهله.

ثم انظر إلى قوله لصاحبي السجن يستثير فيهما داعية التأمل والتفكير ويحملهما على ما يقتضيه النظر السليم ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ [١].

ثم أنظر إلى قوله لهما مسفهاً أحلام قومهم في عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة ومبينا حالها الشنيعة ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [٢].

ثم قوله لهما بعد ذلك مبيناً حال معبوده الحق جل شأنه ﴿إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ [٣].

وإذا كان يوسف عليه السلام قد بلغ من المكانة في مصر أن أصبح عزيزها وصاحب الكلمة العليا فيها فلنا أن نتوقع أن رسالته قد صادفت قبولا من بعض النفوس، وإن كانت النصوص لم تحدثنا عن شيء من ذلك، ولكن مما لا شك فيه أن رسالته قد حفظت في بني إسرائيل من بعده، وكانت منار هداية لهم مدة إقامتهم بمصر حتى خرجوا منها مع موسى عليه السلام، ولعل من المناسب الآن أن نتحدث في إيجاز عن ديانة هؤلاء المصريين ومعتقداتهم لنرى مدى استعدادهم لقبول فكرة التوحيد التي هي عماد الرسالات الإلهية.

عقيدة المصريين

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في كتابه (الدين) عند تعليقه على العصر الفرعوني:

«تدل بعض أوراق البردى المحفوظة الآن في برلين وفي لندن على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الإله الأحد الغيبي الأزلي الذي لا تصوره

(١) سورة يوسف الآية ٣٩.

(٢) سورة يوسف الآية ٤٠.

(٣) سورة يوسف الآية ٤٠.

الرسوم ولا تحصره الحدود غير أن تلك العقيدة الروحية كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره في بعض الكائنات الممتازة من إنسان، أو حيوان، أو جماد.

فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير في الملوك وقوة الإخصاب النباتي في النيل وقوة الإخصاب الحيواني في العجل (أبيس) مستمدة بتلقيح شعاع الشمس مثلا، وأن هذه الكائنات الخاصة أهل للتقديس والعبادة بفضل تلك الصلة السرية بالإله الأعلى.

ويقول الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي في كتابه (وحدة الدين والفلسفة والعلم) عند كلامه على فلسفة الديانة المصرية القديمة (وكان المصريون يعرفون الله الواحد الأحد، وكانت عبادتهم له بالصمت والرهبة احتراما وتوقيرا وكان وصفه عندهم (فرد أزلي خالق كان قبل كل شيء ويبقى بعد كل شيء لا بداية له، ولا نهاية خلق الأرواح في الأشباح يمضي الزمان وهو باق لأنه هو الإله الذي لا اسم له.

وقد سماه المصريون القدماء (آتون) ولهذا الاسم معنيان - معنى خفي وهو أصل كل شيء قام به الوجود. ومعنى ظاهري وهو الأتوم الذري المعروف الذي تكونت به السموات وما فيها من شموس والأرض وما فيها من مخلوقات فإذا اتجه (أتوم) للوهب والإعطاء سمي (رع) وإذا ظهر بارزا بمثاله (الشمس) سمي آمون فظهر آمون، ثم رع، ثم أتوم الخفي ووجد في هرم سقارة المدرج من الوثائق ما يدل على أنهم كانوا يعتقدون في إله ذي صبغة خفية لأنه غير منظور).

ووجد أيضاً في هيكل إيزيس بصا الحجر نقش قديم يتضمن الكلمات الآتية (أنا كل شيء كان وكل شيء كائن وكل شيء سيكون ومحال على من يغني أن يزيل النقاب الذي تنقب به وجه من لا يغني) وقال العلامة ما سبيرو أحد أساتذة كلية فرنسا (وكان إله المصريين الأول عالما بصيرا لا يدرك موجودا

بنفسه حيا بنفسه حاكما في السموات والأرض لا يحتويه شيء فهو أب الآباء، وأم الأمهات لا يفنى ولا يغيب يملأ الدنيا، وليس له شبيه ولا حد ويوجد في كل مكان).

ثم يرد بعد ذلك على من يزعمون أن قدماء المصريين كانوا وثنيين يعبدون آلهة متعددة ويزعم أنهم كانوا يتخذون منها رموزا فقط تدل على صفات الإله الواحد. فيقول:

(ويدعى بعض العلماء الذين كان علمهم بالمصرولوجيا القديمة سطحيا غير ناضج أن قدماء المصريين كانوا يعبدون آلهة متعددة ومن بينها صنوف من الكواكب كالشعري اليمانية والشمس والجوزاء وغيرها بل وأكثر من هذا قالوا إنهم كانوا يعبدون الحيوانات كالبقر والعجول والقردة والقطط والتماسيح؛ ولم يعلموا أنها كانت رموزا مجازية تدل على حقائق وصفات إلهية.

وقد وقف أولئك العلماء عند الرموز، ولم يعدوها إلى أسرار الديانة المصرية، وهي أن عوام المصريين القدماء لم يعبدوا هذه الأشياء لذواتها، وإنما جعلوها رمزا لذلك الإله القادر الذي حلت على زعمهم روحه وظهرت آثاره فيها. وهذا من فعل الكهنة في دور من أدوار الديانة المصرية؛ وهو الدور الرمزي المعدد للآلهة ويقول في مكان آخر (ومن صفات الله الثلاث الوجود والحكمة والحياة) اشتق المصريون في العصر الثاني لتطور الديانة (عصر الرموز) اسم آتون ورع وآمون بمعاني الخفي والواهب أو المعطي والظاهر في الشمس وفي باقي الطبيعة).

ويقول كذلك في موضع آخر (وبينما نرى الملوك في المعابد الكبرى ماثلين في العبادة أمام آتون أو رع أو آمون إذ بنا نرى في بعض حوائط المعابد الصغيرة صور الفراعنة ولها الصف الأول حتى قبل الآلهة، بل نراها تتقبل العبادة ولها اختصاصات الآلهة.

وهكذا تطور الدين من عبادة الإله الذي لا اسم له ولا شكل في أول أمره في شخص أتون ورع، ثم قرص الشمس في شخص آمون وبقية مظاهر الطبيعة ثم

الملوك والعظماء.

أقول ولم يلبث ذلك الدين الذي بدأ بالتوحيد أن انتهى بالشرك والوثنية التي خالطت العبادة على يد الكهنة أخيرا من أحط الحيوانات وأحقر الحشرات والهوام.

وإنما أطلنا في نقل هذه النصوص توخيا للشكف عن هذه الديانة الغامضة التي كانت تسود مصر القديمة، وإن كنا لا نوافق على كل ما جاء في كلام أبي الفيض من اعتبار هذه المظاهر المتعددة رموزا لإله واحد إذ لو صح هذا لما كان هناك موجب لتخصيص كل منها بطقوس خاصة من العبادة في معابد خاصة به فآمون مثلا كان إله طيبة، وقد بلغ إبان ازدهارها وقوتها أن صار كبير الآلهة ورع إله منف أو هليوبوليس وأخيراً نجد أن صراعا نشب بين أحد الملوك وهو أمنحوتب الرابع، وبين كهنة آمون فقد اكتشف هذا الملك إلهه الجديد (آتون) وأراد فرضه على المصريين وسمي نفسه (بإخناتون) وقام بتدمير كل ما شيد لآمون من معابد وآثار فلو كان آمون وآتون شيئاً واحدا في الحقيقة له وجهان لما كان هناك موجب لهذا الصراع، فالحق أن المصريين في انحدارهم من التوحيد إلى الوثنية اتخذوا آلهة متعددة كل منها إله قائم بذاته له أوصافه وخصائصه وإن كان هذا لا يمنع من اعتقادهم بإله هو كبير هذه الآلهة بدليل ما جاء في أناشيدهم من مناجاة وأدعية لهذا الإله.

ولقد صدق الأستاد أبو الفيض في قوله إن الملوك كان لها الصف الأول قبل الآلهة من حيث العبادة والتقديس، ولقد يشهد لهذا قوله تعالى حكاية عن فرعون موسى ﴿فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى﴾[1].

فجعل نفسه رباً فوق الآلهة جميعاً، بل أحياناً كان يتجاهلها ويجعل نفسه هو وحده الآله كما في قوله في آية أخرى ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾[2].

---

(١) سورة النازعات الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة القصص الآية ٣٨.

ولعل السبب في تعديد المصريين القدماء لآلهتهم ما ذكره صاحب كتاب (معتقدات قدماء المصريين وآدابهم) من (أن الناس حين ارتبكت عقولهم وشلت أفكارهم وتساءلوا فيما بينهم: هل يمكن لواحد أن يدبر هذا الملك الشاسع الواسع بمفرده؟ فأجابهم الكهنة بأن ذلك الإله القادر خلق آلهة أخرى لكل غرض إله).

ولعل السبب في تعديد المصريين القدماء لآلهتهم ما ذكره صاحب كتاب (معتقدات قدماء المصريين وآدابهم) من أن الناس حين ارتبكت عقولهم وشلت أفكارهم وتساءلوا فيما بينهم: هل يمكن لواحد أن يدبر هذا الملك الشاسع الواسع بمفرده؟ فأجابهم الكهنة بأن ذلك الإله القادر خلق آلهة أخرى لكل غرض إله.

ولعل ما جرى من المقاولة بين موسى عليه السلام وبين فرعون في سورة الشعراء يشهد بأن فكرة إله واحد مسيطر على كل شيء وإليه ترجع الموجودات جميعاً كانت بعيدة عن الوعي الديني لذلك العهد، وإليك هذه الآيات:

﴿قال فرعون وما رب العالمين؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون؟ قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ (١).

فتجاهل فرعون لرب العالمين وسؤاله موسى عن حقيقته وصفته وقوله حين أخبر بها للملأ الذين معه ألا تستمعون، وتهديده لموسى عليه السلام بالسجن إن هو اعتقد إلهاً غيره، كل ذلك يشهد بما بلغه الملوك في مصر من درجة في العبادة غطت على ما كان للآلهة من ذلك، ويدل على استنكار القوم لوجود رب واحد مسيطر على جميع الكائنات.

ومثل هذه الآيات أيضاً قوله تعالى من سورة طه: ﴿قال فمن ربكما يا موسى؟ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، قال فما بال القرون

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩.

الأولى؟ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾[١].

وقد تقدم قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[٢].

شعيب عليه السلام

بعث شعيب في أهل مدين، وكانوا أهل شرك وعبادة أوثانٍ وأهل تطفيف للكيل والميزان، فدعاهم شعيب إلى الله عز وجل ونهاهم عن هذه العادة القبيحة وذكرهم بما أفاء الله عليهم من سعة الرزق وبسطة العيش، فردوا عليه أقبح رد وأغلظه وقالوا له: ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[٣].

فأجابهم هو على ذلك بأحسن جواب وألطفه حيث قال لهم: ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. ويا قوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾[٤] فما كان من القوم الغلاظ الأكباد القساة القلوب إلا أن أصموا آذانهم عن النصح وهددوا نبيهم بالرجم وقالوا: ﴿يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز. قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط. ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل، سوف

---

(١) سورة طه الآيات ٤٩ - ٥٤.

(٢) سورة يوسف الآية ٣٩.

(٣) سورة هود الآية ٨٧.

تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب، وارتقبوا إني معكم رقيب﴾[1].

وأطال شعيب القول لقومه وبذل لهم غاية النصح في حسن بيان ولطف عبارة، فقد كان كما روى خطيب الأنبياء، ولكنهم لم يزدادوا إلا تمادياً في الغي وإمعاناً في الضلال، اللهم إلا نفراً قليلاً منهم استجابوا لدعوته، وحتى هؤلاء لم يسلموا من أذى قومهم لهم فقد هددوهم باخراجهم مع شعيب من القرية عقاباً لهم على إيمانهم به، كما قال تعالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾[2] وقد رد عليهم بقوله ﴿أو لو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[3].

وكان هؤلاء المستكبرون يقعدون لهؤلاء المؤمنين بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً ويقولون لهم: ﴿لئن أتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾[4] فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، وذلك أنه أرسل عليهم سحابة أظلتهم في يوم شديد الحر، فلما وجدوا بردها وجاءتهم منها ريح طيبة تنادوا حتى إذا أجتمعوا تحتها ألهبها الله عليهم ناراً فاحترقوا ورجفت بهم الأرض، وتلك نهاية القوم الظالمين.

موسى عليه السلام

تحدثنا سابقاً عن قصة يوسف عليه السلام كيف مكن الله له في أرض مصر، وأنه استقدم إليه أبويه وإخوته وسائر أهله، فأقاموا بمصر قروناً عدة حتى كثروا وزاد عددهم مما حمل فرعون مصر على التخوف منهم، فسامهم سوء العذاب،

(١) سورة هود الآية ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) سورة هود الآيات ٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٣.
(٣) سورة الأعراف الآية ٨٨.
(٤) سورة الأعراف الآيتان ٨٨ ـ ٨٩.
(٥) سورة الأعراف الآية ٩٠.

فكان يستحي نساءهم أي يستبقيهن للخدمة ويذبح أبناءهم، وكان يعاملهم بمنتهى الإذلال والقسوة ويستخدمهم في الأعمال الشاقة وألوان السخرة، كما قال تعالى ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[1].

وبظهور موسى عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة وخطيرة في حياة بني إسرائيل كما تبدأ حلقة من حلقات النضال في سبيل الدعوة إلى التوحيد بطلاها موسى وهارون عليهما السلام وليس من غرضنا الآن أن نخوض في قصة ولادة موسى عليه السلام وما اشتملت عليه من مظاهر العناية الإلهية به وكيف رباه سبحانه في بيت عدوه فرعون، ولا أن نخوض فيما كان منه عليه السلام في تلك الفترة التي سبقت نبوته من قتله المصري حين استغاثه عليه الإسرائيلي ثم همه في اليوم التالي أن يبطش بمصري آخر حين استصرخه ذلك الإسرائيلي الذي كان قد استنصره بالأمس، لولا أن ذلك المصري كان يعرف تلك الحادثة التي حدثت بالأمس فأسرع إلى القوم يخبرهم بحقيقة موسى عليه السلام وأنه إسرائيلي يناصر الإسرائيليين مما جعلهم يأتمرون به ليقتلوه، لولا أن جاءه رجل من أقصى المدينة يسعى يخبره بما ائتمر عليه القوم من قتله وينصح له بالخروج من مصر، فخرج منها خائفاً يترقب إلخ.

أقول: ليس من غرضي أن أتحدث عن هذا الدور من حياة موسى عليه السلام، فإنه دور إعداد وتمهيد قصد به تهيئته لحمل تلك الرسالة الكبرى، كما قال تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾[2] ﴿واصطنعتك لنفسي﴾[3].

ونبدأ الحديث عن موسى عليه السلام بعد أن قضي الأجل الذي كان مضروباً بينه وبين حميه، وهو عشر سنين أستأجره فيها لرعى غنمه مقابل تزويجه

---

(١) سورة القصص الآيات ٤ ـ ٦.
(٢) سورة طه الآية ٣٩.
(٣) سورة طه الآية ٤١.

ابنته، ولما سار بأهله قافلاً إلى مصر عبر صحراء سيناء آنس من جانب الطور ناراً، وكان الجو ليلتها شديد البرودة، لا سيما في تلك الصحراء الدوية التي تنطلق ريحها كمردة الشياطين، فطمع موسى عليه السلام أن يقبس لأهله من تلك النار جذوة يستدفئون بها، أو يجد عليها أدلاء يرشدونه إلى الطريق، فلما أتاها واقترب منها لم يجد ناراً وإنما وجد نوراً قد تغشى الشجرة المباركة وأتاه الوحي من قبلها أن ﴿ياموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا أخترتك فاستمع لما يوحى، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فآعبدني وأقم الصلوات لذكري، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ (1).

ثم أراد اللّه عز وجل إيناسه بالخطاب وتسليحه بالآيات قبل أن يأمره بالذهاب إلى فرعون فسأله عما في يمينه فقال: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى وآضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى، إذهب إلى فرعون إنه طغى، قال رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ (2).

وهكذا يمن اللّه على موسى عليه السلام فيصطفيه لرسالته ويحقق له أمنيته بجعل أخيه هرون وزيراً له: يشد به أزره، ويشركه في أمره، ثم يرسلهما معاً إلى فرعون وقومه ويأمر هما باللين والرفق في الدعوة، فيقول لهما: ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (3) ﴿قالا ربنا إننا

---

(1) سورة طه الآيات ١١ - ١٦.

(2) سورة طه الآية ١٨ - ٣٦.

(3) سورة طه الآيتان ٤٣ - ٤٤.

نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾ (١).

ولما قرعت هذه الدعوة الكريمة سمع الطاغية، وأسماع الملأ الذين حوله دارت منها رأسه، ورأى فيها نذير الخطر على ملكه فابتدر موسى بقوله: ﴿وما رب العالمين﴾ مبدياً تجاهله وإنكاره لأن يكون هناك إله غيره، فقال له موسى عليه السلام ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ فيلتفت الطاغية حين بهته الدليل وأفحمته الحجة إلى الملأ من حوله ويقول لهم ﴿ألا تستمعون﴾ فيبادرهم موسى عليه السلام بقوله ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ ولما لم يستطع فرعون رداً على هذه الآيات البينات خرج من المناظرة إلى السب والمهاترة، فقال هذيان حماد ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ فقذف في وجهه موسى عليه السلام بثالثة الآيات ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ (٢) وهنا يتملك الغضب فرعون الطاغية، ويغرب عنه صوابه، ويخرج إلى أسلوب التهديد والوعيد قائلاً ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ (٣) وهنا لم يبق لدى موسى عليه السلام إلا أن يلقى في وجهه بالآية الكبرى التي تلقمه الحجر، فقال له ﴿أو لو جئتك بشيء مبين، قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ (٤) وكانت هذه هي الجولة الأولى التي انتصر فيها الحق على الباطل، وعلت فيها كلمة التوحيد.

ولما وجد فرعون أن الدهشة قد عقدت ألسنة الحاضرين من ملئه وامتلأت قلوبهم إعجاباً وارتياعاً لتلك الآيات العظيمة، أراد أن يهون من شأنها بدعوى

(١) سورة طه الآيات ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(٤) سورة الشعراء الآية ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣

أنها من جنس السحر الذي يقوم به السحرة، ولكنه لم يملك إلا أن يصف موسى ببلوغه درجة المهارة والحذق في هذا الباب فقال لهم: ﴿إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾ (١) وكأنه كان يطمع أن يشير عليه قومه بقتل موسى وأخيه فيستريح منهما ويسلم له ملكه وسلطانه ولكنهم أشاروا عليه بأن يرجىء موسى وأخاه، وأن يجمع السحرة من كل أنحاء مملكته لمنازلة موسى ومغالبته. فجمع السحرة لميقات يوم معلوم، ومعهم كل ما يقدرون عليه من ألوان السحر، من حبال وعصي، ووجدوا الفرصة سانحة لكي يملوا شروطهم على فرعون.

فقالوا له: ﴿أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ (٢).

ولما جاء يوم الزينة وهو اليوم الذي واعدهم عليه موسى عليه السلام، وحشر الناس ضحى ليروا ماذا يكون من أمر موسى مع السحرة، ابتدأ موسى بالنصح لهؤلاء السحرة وقال لهم ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم، ثم ائتموا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ (٣).

ولما أجمعوا أمرهم على منازلة موسى عليه السلام طمعاً في الجعل الذي جعله لهم فرعون ابتغاء الزلفى لديه، قالوا لموسى ﴿إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقين. قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجاؤا بسحر عظيم﴾ (٤) ﴿وإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (٥) فالقى موسى عصاه فانقلبت

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) سورة الشعراء الآية ٤١ ـ ٤٢.

(٣) سورة طه الآيات ٦١ ـ ٦٤.

(٤) سورة الأعراف الآية ١١٥ ـ ١١٦.

(٥) سورة طه الآية ٦٥ ـ ٦٩.

حية عظيمة وابتلعت كل ما أفكه السحرة من غير أن ينتفخ بطنها، أو يزيد حجمها، فلما وجد السحرة ذلك عرفوا أنه ليس من جنس ماعندهم من السحر فخروا سجداً، وأعلنوا إيمانهم برب هارون وموسى، فاستشاط فرعون غضباً وخشي أن يتبعهم الناس على إيمانهم، فقال لهم مموها على قومه ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأ قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ [1] وظن الخبيث أن القوم سيرجعون عن إيمانهم تحت هذا التهديد، ولكن فأله قد خاب فإن الإيمان كان قد خالطت بشاشته قلوبهم. فأجابوه على تهديده في لهجة المؤمن الصابر المنتظر لما عند الله المؤمل في غفرانه ورحمته ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾ [2] ونفذ فرعون وعيده في هؤلاء الشهداء الأبرار الذين احتملوا القتل والصلب في سبيل عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار. ثم رجع إلى قومه يستخفهم بزخرف القول، ويقول لهم: ﴿ يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [3].

وكسب الحق في هذا الصراع الجولة الثانية، وكسب أنصاراً من أهل مصر كان يمكن أن يكونوا نواة للتوحيد بين أهلها لولا أن فرعون عاجلهم بهذه العقوبة الجائرة ليحول دون التفاف الجماهير حولهم واقتدائهم بهم في الإيمان برب موسى وهارون وبقي موسى وأخوه بين قومهم بني إسرائيل في مصر، ينتظرون أمر الله لهم بالهجرة والخلاص من عسف فرعون وطغيانه، وأوحى الله إليهما ﴿أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر

(١) سورة طه الآية ٧١.
(٢) سورة طه الآيتان ٧٢ - ٧٣.
(٣) سورة الزخرف الآيات ٥١ - ٥٤.

المؤمنين ﴾[1] وشكا بنو إسرائيل إلى موسى ما لقوه على يد فرعون وأعوانه الجلادين من ذلة وهو ان وذبح الأبناء واستخدام للنساء، فقال لهم: ﴿استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون﴾[2].

وأما فرعون فقد عاد سيرته الأولى مع بني إسرائيل من تقتيل الأبناء واستحياء النساء وأخذهم بألوان العسف والجبروت، وعاد كذلك يستأذن الملأ من قومه في قتل موسى عليه السلام ويقول لهم: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[3] ولكن صوتاً إيمانياً حراً ينبعث من خلال هذه الصيحات الفاجرة المنكرة، وهذه القوى الغاشمة الغادرة يهتف في قومه بموعظة تخلع القلوب ويصبح بهم منذراً لهم بسوء العاقبة إن هم أصروا على كفرهم ومكرهم، وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون المسمى بحزقيل الذي سجل القرآن موعظته البليغة في سورة غافر في قوله تعالى:

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من مسرف كذاب ـ إلى قوله ـ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض امري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾[4].

وفي هذه الفترة سلط الله على فرعون وقومه أنواع البلاء لعلهم يرجعون، فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون وأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز وهو العذاب الشديد طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشفه عنهم ووعده على ذلك أن يؤمنوا له ويرسلوا معه بني إسرائيل، فلما

---

(١) سورة يونس الآية ٨٧.
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) سورة غافر الآية ٢٦.
(٤) سورة غافر الآيات ٢٨ ـ ٤٤.

كشفه الله عنهم، نكثوا العهد وظلوا على ولائهم لفرعون الذي استخفهم بمعسول القول وبذلك استوجبوا العقاب والهلاك الذي كان دائما مصير الطغاة والظالمين، واستحقوا أن يدعو عليهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ (١).

خروج بني إسرائيل من مصر

يقول الله عز وجل في سورة الشعراء: ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين﴾ (٢).

ويصور القرآن الكريم حالة فرعون عند معاينته الغرق من مبادرته إلى إعلان الإيمان ظناً منه أن ذلك ينجيه مما حاق به من الهلاك فيقول: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ (٣).

وهكذا تم خلاص بني إسرائيل على يد موسى عليه السلام بعد أن قضوا في مصر دهراً طويلا كانوا فيه هدفاً لموجات قاسية من العسف والطغيان.

---

(١) سورة يونس الآيتان ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) سورة الشعراء الآيات ٥٢ ـ ٦٦.
(٣) سورة يونس الآيات ٩٠ ـ ٩٢.

(حنين بني إسرائيل إلى الوثنية التي أشربوها في مصر) .

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين، وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ [1] .

ففي هذه الآيات يخبرنا الله عز وجل أنه فلق البحر لبني إسرائيل حتى عبروه إلى الشاطيء الآخر فمروا في سيرهم على قوم عكوف على أصنامهم يعبدونها من دون الله عز وجل، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة مثل آلهة هؤلاء، مما يدل على أن الوثنية المصرية كانت لا تزال عالقة بنفوسهم، وأن استعلاء المصريين عليهم وإذلالهم لهم أثر فيهم حتى قلدوهم في ديانتهم والمغلوب يميل دائماً إلى تقليد الغالب.

والعجب أن يطلبوا ذلك من نبيهم موسى عليه السلام وهو الذي أرسل إليهم ليجتث من نفوسهم عروق الشرك ويغرس فيها حب التوحيد، ولذلك كان رده عليهم في عنف يناسب قبح مطلبهم فقال لهم: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ [2] فوصفهم بالجهل المطلق الذي ليس معه إثارة من علم، ويدخل في ذلك طبعا دخولا أولياً جهلهم بالتوحيد وما يجب من إفراد الرب سبحانه بالعبادة وجهلهم أيضاً بوظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى يطلبوا منهم ما يتنافى مع مهمتهم.

ثم أرشدهم إلى أن ما فيه هؤلاء من عبادة الأصنام واتخاذها آلهة أمر مآله إلى البوار والهلاك، وهو محض الباطل الذي لا بقاء له ولا ثبات.

ثم أبدى عجبه وإنكاره الشديد لأن يطلبوا منه ذلك مع ما شاهدوه قريباً من دلائل القدرة الباهرة في فلق البحر، ودلالة ذلك على عناية الله بهم وجسيم نعمته

---

(١) سورة الاعراف الآيات ١٣٨ ـ ١٤١ (٢) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

عليهم حيث نجاهم مما كانوا يعانونه من عسف آل فرعون وجورهم فقال لهم: ﴿أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين، وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نسائكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ (١).

إعطاء موسى التوراة هدى لبني إسرائيل

قال تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين؛ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين﴾ (٢).

يخبر الله عز وجل في هذه الآيات عن ابتداء التشريع الموسوي وأنه سبحانه أنجز لموسى عليه السلام ما كان قد وعده به من إعطائه كتابا مشتملا على كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في شئون دينهم ومعاملاتهم، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما يعطيه عند انقضائها التوراة، فيقال إنه استاك في آخر يوم منها كراهة أن يناجي الله عز وجل وفمه متغير، فاوحى الله إليه: «أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى فتم ميقات ربه أربعين ليلة».

واستخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون وقال له: ﴿اخلفني في قومي

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٤٠ - ١٤١. (٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٢ - ١٤٥.

وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾[1].

ولما جاء موسى للميقات وسمع كلام الرب سبحانه اشتاقت نفسه الكريمة أن يضم إلى ذلك فضيلة الرؤية فقال ﴿رب أرني أنظر إليك﴾[2] بأن تجعل لي من القدرة ما يجعلني أتمكن من النظر إليك وأتحمل تجليك؛ فأجيب من قبل الرب جل وعلا بما يفيد استحالة وقوع ذلك في هذه النشأة فقيل له: ﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾[3] يعني إذا أطاق الجبل ذلك وثبت عندما أتجلى له فأنت تطيق ذلك ولكن الجبل ما لبث عند تجلي الله له أن صار كثيبا مهيلا وخر موسى عليه السلام مغشيا عليه من هول المشهد، فلما أفاق من غشيته انطلق لسانه بهذه الكلمات التي لهجت بتسبيح الرب والاستغفار من الذنب وإعلان الإيمان بعظمة الله واحتجابه في هذه الدنيا عن الأبصار.

وهذا لا يفيد امتناع الرؤية مطلقاً كما تزعم المعتزلة، فإن الله عز وجل لم يقل لموسى عليه السلام (إني لا أرى أو لا يمكن رؤيتي كما أنه علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلي، وهو أمر ممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية ممتنعة في ذاتها لما طلبها موسى عليه السلام فلا شك أنه أعلم بما يجب لله وما يجوز وما يمتنع عليه من هؤلاء المعتزلة).

وأما قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾[4] فإنه لا يدل على امتناع الرؤية كما يظن النفاة لها، بل هو مستلزم لإثبات الرؤية؛ فإن نفي الإدراك نفي لرؤية خاصة، وهي الرؤية مع الإحاطة، وهو يفيد وقوع مطلق الرؤية فكأنه قال: إن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية، كما أن العقول تعرفه ولكنها لا تحيط به علماً، وقد ورد من الآيات والأحاديث في إثبات الرؤية ما لا يبقي معه شك في وقوعها. قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[5] وصح عنه صلى

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٤٢.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٣.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٣.
(٥) سورة القيامة الآيتان ٢٢ - ٢٣.

الله عليه وسلم أنه فسر الزيادة في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (١) بأنها النظر إلى وجه الله تعالى.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليس دونه سحاب لا تضامون في رؤيته ».

وعن الشافعي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾(٢) أنه قال: لما حجب هؤلاء عن رؤيته لسخطه عليهم دل على أن المؤمنين يرونه برضاه عنهم أو كما قال.

وقيل أن ينصرف موسى عليه السلام من هذه المقابلة أخبره الله عز وجل بما وقع في قومه من الفتنة وإضلال السامري لهم بالعجل الذي صاغه لهم من حليهم، فكيف كان ذلك؟

عجل السامري

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين، قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ (٣).

وقال في سورة طه: ﴿وما أعجلك من قومك يا موسى، قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى، قال فإنا قدفتنا قومك من بعدك وأضلهم

(١) سورة يونس الآية ٢٦.
(٢) سورة المطففين الآية ١٥.
(٣) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ - ١٥١.

السامري﴾[1] إلى قوله ﴿قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، وكذلك سولت لي نفسي﴾[2].

هذه الآيات تصور تلك النكسة التي أصابت شعب إسرائيل بعودتهم إلى الشرك والوثنية التي ألفوها عند إقامتهم بمصر، فبمجرد أن خرج موسى عليه السلام لميقات ربه وقد استخلف على قومه أخاه هارون عليه السلام، وكان هارون رجلا لين الطبع حليما، فاهتبل القوم هذه الفرصة وأعطوا حليهم التي كانوا قد استعاروها من المصريين لموسى السامري فصاغ لهم منها عجلا جسداً ويقال إنه ألقى عليه حفنة من التراب الذي سار عليه جبريل علي السلام فصار عجلا حيا له خوار، ثم قال لهم: هذه إلهكم وإله موسى، فنسى فاستخف القوم فأطاعوه وعبدوا العجل، فقام هارون عليه السلام ينصحهم ويحذرهم عاقبة شركهم ويقول لهم ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾[3].

فانظر إلى أي حد بلغ هؤلاء القوم من الحمق والسفاهة؟ إن هذا العجل قد صيغ أمامهم من الحلى التي كانت لديهم، فلو كانت عندهم مسكة من عقل لما انحدروا إلى عبادته وهم يرون أنه لا يكلمهم ولا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولكن إلفهم بالوثنية في مصر أعماهم وكانت ملكة التقليد للمصريين لا تزال متمكنة من نفوسهم. وقد رأينا كيف أنهم حينما عبروا البحر بتلك الصورة الخارقة لم يلبثوا أن قالوا لموسى حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿أجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾[4].

يقول فضيلة الشيخ العدوي رحمه الله «فهذا نبي الله موسى يمضي الأيام في دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى، ويدأب على محاربة الشرك والوثنية أياماً وليالي، ثم يترك أخاه هارون عليه السلام فيطمع القوم في حلمه ولين جانبه

---

(١) سورة طه الآيات ٨٣ ـ ٨٥.
(٢) سورة طه الآيات ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) سورة طه الآيتان ٩٠ ـ ٩١.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٨.

فيفترض السامري تلك الفرصة ويضل القوم بعمل عجل من حلى الذهب والفضة على نحو خاص، بحيث إذا مر الهواء منه صوت كصوت العجل، ويستغل سذاجة بني إسرائيل وجهلهم بحقيقة تلك الصنعة، ويريهم أن ذلك هو الذي ينبغي أن يعبد، فيعود نبي الله موسى فيحزن على ذلك العمل الحزن العميق، ويأسف غاية الأسف على إضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه واستعدادهم لكل أنواع التخريف.

التوراة ودعوتها إلى التوحيد

كانت التوراة أول كتاب سماوي نزل متضمنا لشريعة كاملة البناء فإن ما نزل قبلها لم يعد أن يكون صحفا مشتملة على بعض الوصايا والمواعظ، كصحف إبراهيم وما أنزل على إسحاق ويعقوب.

وقد ورد ذكر التوراة في القرآن في عدة مواضع ووصفت بأنها هدى ونور وضياء وذكر وتمام على الذي أحسن، وتفصيل لكل شيء، وأن الله أمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها، وأن يأخذوها بقوة وأن يقيموا أحكامها، وأن لا يشتروا بها ثمنا قليلا وأن لا يحرفوا كلمها عن مواضعه إلخ ما جاء في شأنها، وشأن من نزلت عليهم.

والذي يعنينا هنا بيان ما جاء فيها من الدعوة إلى التوحيد الذي هو لب كل شريعة وأساسها والتوراة غنية من هذه الناحية جدا فقد جاءت بتفاصيل العبادة التي لا تنبغي إلا لله، وحذرت من صور الشرك وبواثق الوثنية.

فقد جاء في سفر الخروج (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر أرض العبودية) .

وفي سفر التثنية (فتحب الرب الهك الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك، لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة العظيم الجبار المهيب، الرب إلهك تتقى، وإياه تعبد وبه تلتصق وباسمه تحلف وهو إله واحد لا شريك له الرب إلهنا رب واحد لا

تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم، لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم).

وفي الوصية الثانية من الوصايا العشر التي كتبت على الألواح الحجرية المنزلة على موسى عليه السلام والتي انتظمها الإصحاح العشرون من سفر الخروج (لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي).

(وجاء في سفر التثنية) لا تنصب لنفسك سارية من شجرة ما بجانب مذبح الرب إلهك الذي نصبه لك، ولا تقم لك نصبا الشيء الذي يبغضه الرب إلهك، فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حواريب من وسط النار، لئلا تفسدوا وتعلموا لأنفسكم تمثالا منحوتاً صورة مثال ماشية ذكر أو أنثى شبه بهيمة مما على الأرض، شبه طير ماذي جناح مما يطير في السماء، شبه دبيب ما مما على الأرض، شبه سمك مما في الماء تحت الأرض).

وجاء في سفر لاويين (لا تلتفتوا إلى الأوثان وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم).

وكما نهوا عن عبادة الأوثان، نهوا عن عبادة النجوم وغيرها من الأجرام العلوية كما جاء لا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء، فتغتر وتسجد لها وتعبدها، وليس هذا فحسب بل أمروا أن يعاملوا بالشدة جميع الأمم التي تدين بعبادة الأوثان كقوله في التثنية.

فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لإبنك لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى تهدمون مذابحهم وتكسرون أصنامهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار

وتماثيل آلهتهم تحرقون بالنار. لا تشته فضة ولا ذهباً مما عليها لتأخذ لك لئلا تصاد به لأنه رجس عند الرب إلهك.

وكما أمروا بالقسوة على الأمم الوثنية أمروا بمثل ذلك في حق من يشرك منهم فقد أمر موسى عليه السلام بني لاوي رهطة بقتل عبدة العجل حين عبد العجل في غيبته.

ففي سفر الخروج: « هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه »، ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثةآلاف رجل وفي رواية ثلاثة وعشرون ألف رجل، وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بأبيه وأخيه فيعطيكم اليوم بركة.

وجاء فيه أيضاً (من ذبح لآلهة غير الرب يهلك).

وفي التثنية (والرجل أو المرأة الذي يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس أو للقمر أو لكل من جند السماء يخرج ويرجم بالحجارة حتى يموت).

والقرية التي تعبد آلهة أخرى يضرب سكانها بحد السيف ويحرم كل ما فيها مع بهائها بحد السيف وتحرق جميع أمتعتها بالنار وتكون تلا إلى الأبد لا تبني بعد وإذا أغرى أحد بالشرك يقتل، ولو كان المغرى أخاك ابن أبيك، أو ابنك أو بنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك، فلا ترض منه، ولا تسمع له، ولا تشفق عليه، ولا ترق له، ولا تستره بل تقتله قتلاً، يدك تكون عليه أولا تقتله، ثم أيدي جميع الشعب أخيراً ترجمه بالحجارة حتى يموت.

هل عددت التوراة

يقول الأستاذ أمين الخولي في محاضراته عن اليهودية التي وضعها لطلبة كلية أصول الدين: « إن الباحثين في الأديان لا ينظرون إلى الدعوة الشائعة عن

الوحدانية في اليهودية وكماها بعين الاطمئنان ويستشفون في التوراة آثاراً للتعدد ، مثل قولها(لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم) وقولها (لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى).

فيلاحظون من مثل تلك النصوص أن التوراة تذكر هذه الآلهة بصيغة الجمع على أنها آلهة لها على عابديها مظاهر الألوهية والقدرة، وأن إله إسرائيل إنما يغار من تلك الآلهة فينهي عن اتباعها كما يستشفون هذا التعدد من تخصيص الآلهة وإضافتها، فيقال إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب الخ.

ولهذا يرون أن التوحيد عند اليهود خطوة متأخرة. وأنها تدرجت عن تعدد وثني.

ونحن نرى أن هذا رأي خاطىء رغم ما يظهر من موافقة الأستاد أمين الخولي عليه. ولبس في النصوص التي أوردوها ما يشهد لهذا الرأي، فإن النهي في التوراة عن عبادة آلهة الأمم الأخرى، وذكر غيرته سبحانه من عبادتها لا يقتضي أنها آلهة حقيقية. وكل الرسل الذين بعثهم اللّه عز وجل كانوا يأمرون أقوامهم بعبادة اللّه وحده وترك ما كانوا يعبدونه من آلهة مزعومة لا دليل عليها. فهل معنى هذا أن هذه الآلهة كانت لها حقيقة الإلهية. كلا وإنما تسميتها آلهة بحسب ما زعم لها عابدوها، وقد جاء في القرآن إطلاق لقب الآلهة عليها تبعاً لذلك. قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في مخاطبته لقومه ﴿أإفكاً آلهة دون اللّه تريدون﴾ (١).

وقال سبحانه في شأن المشركين: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون اللّه من شيء لما جاء أمر ربك﴾ (٢).

وقال على لسان أهل الكهف ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ (٣).

---

(١) سورة الصافات الآية ٨٦.

(٢) سورة هود الآية ١٠١.

(٣) سورة الكهف الآية ١٥.

وأما ما زعموه من التعين بالإضافة والتخصيص فهو أشد بطلاناً من سابقه، فإنه لم يرد بهذه الإضافات المتعددة أن تدل على أن لكل واحد من المضاف إليهم إلهاً خاصاً، فيكون لإبراهيم إله ولإسحاق إله وليعقوب إله حاشا لله من ذلك، وإنما المراد بيان أن هؤلاء جميعاً إلههم واحد، كما يدل عليه عجز الآية الكريمة التي وردت على لسان أولاد يعقوب حين قال لهم أبوهم ﴿ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ [1].

وكيف يعقل أن تحتوي التوراة على ما يفهم التعدد، وقد تقدم لك من نصوصها ما هو صريح في التوحيد المحض البعيد عن كل شائبة من شوائب الوثنية. وتقدم لك أيضاً ما أجاب به موسى عليه السلام قومه حين قالوا له ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون إلخ﴾ [2].

بل إنهم حين اتخذوا العجل الذي صاغه لهم السامري في غيبة موسى عليه السلام كان من توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم. من عبده، حتى قيل أن من قتل في هذا اليوم كان نحواً من سبعين ألفاً».

ومن العجيب أن تكون نظرة هؤلاء الباحثين في الأديان إلى تلك الديانات المؤلهة التي جاءت بها الرسالات نظراتهم إلى الديانات الوثنية عند الآشوريين والبابليين وغيرهم.

وأعجب منه أن ينقل هذه الآراء أستاذ مسلم ثم لا يعقب عليها بكلمة تدل على خطئها.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٣.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٣٨ - ١٣٩.

ما بعد موسى عليه السلام

جاءت التوراة بشريعة أساسية أمر اللّه بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها وأن يحافظوا عليها؛ ونهاهم أن يتراخوا في القيام بما تضمنته من تكاليف أو يحاولوا التملص منها بأنواع التحريف والتأويل. ومع أن التوراة كانت بهذه المثابة من التمام والكفاية لهذا الشعب، فإن الله سبحانه أرسل فيهم بعد موسى عليه السلام رسلاً وأنبياء كثيرين لإحياء شريعة التوراة ومراقبة تنفيذ أحكامها والحكم بمقتضى نصوصها كما قال تعالى ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء﴾ (١).

ولكن القوم رغم ذلك لم يوفوا بعهودهم، وامتلأ تاريخهم بأنواع المخالفات التي ارتكبوها، وقد أورد القرآن الكريم الكثير منها. ولم يسلم التوحيد نفسه الذي هو أصل ديانتهم من التأثر بما وقع من أنواع الإنحراف في هذه الديانة الموسوية.

ولعل أهم ما أصاب التوحيد من هذا الإنحراف هو ما حكاه القرآن الكريم عن هؤلاء اليهود من قولهم (عزير بن اللّه) وكانت الشبهة التي قادتهم إلى هذه الحماقة ما رواه السدي وغيره من أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا أمرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه، فقال لها ويحك، من كان يطعمك ويسقيك قبل هذا؟ قالت اللّه: قال فإن اللّه حي لا يموت قالت يا عزير: فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال اللّه قالت فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به، ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصلى هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله، فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ: فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات

(١) سورة المائدة الآية ٤٤.

فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة، فقالوا ياعزيز ما كنت كذاباً فعمد فربط على إصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها الجبال وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله رواه ابن كثير.

وكذلك نجد في التوراة التي بين أيدينا الآن نزوعاً شديداً إلى التجسيم والتشبيه مما نعتقد أنه مما حرفه اليهود من كتابهم، وأنه لا يمكن أن يكون في التوراة الأصلية التي أنزلت على نبيهم موسى عليه السلام.

يقول الأستاد أمين الخولي في محاضراته (لكن هذه الوحدانية المتشددة المتجردة التي رأينا عنفها في المخالفين، قريبين أو بعيدين ورأينا استئصالها لأسباب الشرك الظاهرة والخفية، هذه الوحدة القوية قد شيبت في التوراة بتجسيم واضح بارز لا يتفق مع روح التجريد التي حرمت التصوير والنحت، بل حرمت اتخاذ السارية في المعبد وتكرر هذا التجسيم في مواطن متعددة.)

والقرآن نفسه يحكي عنهم مقالتهم في التشبيه، ووصفهم الرب جل وعلا بما لا يليق به من صفات النقص والسوء. كقولهم ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [1] وقولهم ﴿يد الله مغلولة﴾ [2] وقولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [3] إنه أبتدأ الخلق يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت الخ ما ذكر عنهم في هذا الباب، مما يدل على طبعهم المادي الذي لم يهتد إلى الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

يقول الشهرستاني في كتابه الملل والنحل «وقد أجمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقياً

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨١.

(٢) سورة المائدة الآية ٦٤.

(٣) سورة المائدة الآية ١٨.

على قفاه واضعاً إحدى رجليه على الأخرى »[١].

داود وسليمان عليهما السلام

كانا من أنبياء بني إسرائيل، وقد ذكرت قصتهما في كثير من سور القرآن الكريم مطولة أحياناً ومختصرة أحياناً، فهي في كل من الأنبياء والنمل وسبأ وص على شيء من التفصيل، وأحياناً يذكران معاً، وأحياناً يفرد أحدهما عن الآخر، ففي سورة البقرة يحكى الله عز وجل أن داود عليه السلام كان في الجيش الذي خرج به طالوت لقتال العماليق، وأنه قتل جالوت، وأن الله آتاه من أجل ذلك الكتاب والحكمة وعلمه مما يشاء.

وفي سورة النساء والأنعام يذكران معاً على أنهما من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم، وأنهما من نسل إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليماً﴾[٢].

وفي سورة الأنعام يقول سبحانه ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين﴾[٣].

والـــذي يعنينا هنا من قصة داود وسليمان أنهما أسسا مملكة للتوحيد وسط عالم مشرك، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبلهما في بني إسرائيل، فإن داود كان في جيش طالوت، وكان هو الذي قتل جالوت ملك العمالقة فورثه الله ملكه وشده له وقواه، قال تعالى ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٠ تخريج الأستاذ بدران. (٣) سورة الأنعام الآية ٨٤.

(٢) سورة النساء الآيتان ١٦٣ - ١٦٤.

أواب إنا سخرنا الجبال معه يسجن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[1].

وقال سبحانه عن ولده سليمان ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[2].

وقد بلغ من عظمة ملك سليمان أن كانت الملوك من حوله تخطب وده وتخشى بأسه.

وقد حكى الله عز وجل في سورة النمل قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، حين أخبره الهدهد بأنه وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فأرسل إليها سليمان كتاباً يدعوها فيه إلى الدخول في الإسلام، وهو توحيد الله عز وجل والعمل بشريعته، وأنها استشارت أهل الرأي في مملكتها ففوضوا الأمر إليها فرأت أن ترسل إلى سليمان بهداياها علها أن تثنيه عما أراده منها من الدخول في طاعته ولكنه رد هديتها قائلاً ﴿أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾[3].

ثم رأى سليمان عليه السلام أن ينقل عرشها إليه قبل أن تأتيه هي وقومها مسلمة مذعنة وأنه لما رآه مستقراً عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر.

ثم لما جاءت بلقيس عرض عليها عرشها منكراً. وقال لها أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو، وقال لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فقيل لها إنه صرح ممرد من قوارير، فلما رأت عظمة ملك سليمان وما آتاه الله من

---

(١) سورة ص الآيات ١٧ - ٢٠.

(٢) سورة ص الآيات ٣٥ - ٣٩.

(٣) سورة النمل الآيتان ٣٦ - ٣٧.

الغني وتسخير الجن له، قالت ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ [1].

افتراءات اليهود على داود وسليمان

عرف اليهود في تاريخهم الطويل بالطعن على أنبيائهم والإستهانة بأقدارهم، فكثير ما آذوا موسى عليه السلام، هو الذي كان خلاصهم من العبودية على يده حيث عبر بهم البحر وأتاهم بالتوراة بشريعة لهم، ولم ينج الأنبياء بعد موسى من ظلم هؤلاء المسرفين. وقد حكى القرآن عنهم أنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوي أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

يقول الأستاذ أمين الخولي(وإذا جاء نبي وادعى نزول الوحي عليه من الله وصدق على التوراة ولكنه أضاف إليه وصية جديدة زعم نزولها عليه بالوحي أو أمر بإبطال أحد أحكام التوراة يقتل.

وإذا جاء نبي وأقر على ما في التوراة وسلك بموجب أوامرها ونواهيها تطلب منه الآيات المثبتة لكرامته ومتى ثبتت عد نبياً، وإلا حكم عليه بالقتل أو الجنون).

وقد لقى داود وسليمان من هؤلاء القوم أشد العنت وأشنع الإتهامات، أما داود فقد رموه بأنه أحب زوجة قائده أوريا، وأنه أرسله مراراً على رأس الجيش مؤملاً أن يقتل ليتخلص منه.

ومن العجيب أن كثيراً من المفسرين قد انساقوا وراء هذه الفرية وحملوا عليها قوله تعالى في سورة ص: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، قال لقد ظلمك

---

(١) سورة النمل الآية ٤٤.

بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ (١).

وذهبوا إلى هذين الخصمين اللذين تسورا المحراب على داود عليه السلام إنما هما ملكان بعثهما الله عز وجل إليه لينتبه إلى خطئه في محاولة ضم زوجة أوريا إليه، وعنده أكثر من تسع وتسعين أمرأة.

وهكذا يسقط المفسرون في هذه الحماقة جرياً وراء إسرائيليات باطلة ناسين ما في هذا الصنيع من إلصاق تهمة شنيعة برسول كريم.

وأما اتهام اليهود لسليمان عليه السلام فقد كان أشد وأنكى حيث أنكروا رسالته وأتهموه بأنه كان ساحراً، وأنه إنما سخر الجن والإنس بواسطة السحر، ولقد برأ الله سليمان مما نسبوه إليه قال تعالى في سورة البقرة: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ (٢) الآية.

ومما رموا به سليمان عليه السلام أنه نمى إليه خبر ملك تحصن في جزيرة فخرج إليه بالريح وقتله وأخذ ابنته وكانت في غاية الجمال فأحبها وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها، فأمر سليمان الجن بان يعملوا لها تمثالا على صورة أبيها فكسته كسوة نفيسة، وكانت تغدو وتروح إليه مع ولائدها يسجدن له على عادتهن في ملكه، فسقط الخاتم من يد سليمان عليه السلام لعصيانه باتخاذ الصنم الذي يسجد له في بيته، فقال آصف إنك مفتون بذنبك: فتب إلى الله، فخرج إلى فلاة وقعد على الرماد تائباً إلى الله سبحانه وتعالى، ويفسرون بهذه الفرية قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً، ثم أناب ﴾ (٣).

يقول صاحب المواقف وشارحها في رد هذه الفرية:

---

(١) سورة ص الآيات ٢١ ـ ٢٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٢.
(٣) سورة ص الآية ٣٤.

« والجواب أن هذه الحكاية الخبيثة التي يرويها الحشوية كتاب الله مبرأ عنها فإنه قال النبي عليه السلام في تفسير هذا الكلام (قال سليمان أطوف الليلة على مائة امرأة تلد كل أمرأة منهن ولداً يقاتل في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله فلم تحمل من تلك المائة إلا واحدة فولدت نصف غلام، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه بين يديه ولو أنه قال إن شاء الله كان كما قال فالابتلاء المذكور في الآية إنما كان لترك الاستثناء لا لمعصية.

وقيل كان ابتلاؤه بالمرض فإنه مرض حتى صار مشرفا على الموت لا يقدر على حركة كجسد بلا روح.

وقيل ولد له ولد فقالت الشياطين إن عاش ولده لم ننفك عن السخرة، فعزمت على قتله فعلم سليمان ذلك فخاف على ولده من الشياطين أن تهلكه، فأمر السحاب أن يحمله وأمر الريح أن تحمل إليه غداءه فمات الولد في السحاب، فألقى على كرسيه، فتنبه سليمان إلى خطئه حيث لم يتوكل على ربه ».

نبذ من كلام داود وسليمان عليهما السلام في التوحيد

جاء في أخبار الأيام الأول من كتاب العهد القديم أن داود عليه السلام خطب بني اسرائيل في يوم إصعاد التابوت إلى مكانه الذي أعده له فقال ما ملخصه:

« احمدوا الرب. أدعوا باسمه. أخبروا في الشعوب بأعماله. غنوا له. ترنموا له. تحادثوا بكل عجائبه. افتخروا باسم قدسه. نفرح قلوب الذين يلتمسون الرب. اطلبوا الرب وعزه التمسوا وجهه دائما باذرية إسرائيل عبده، وبني يعقوب مختاريه، هو الرب إلهنا في كل الارض أحكامه. حدثوا في الأمم بمجده، وفي كل الشعوب بعجائبه، لأن الرب عظيم ومفتخر جدا وهو مرهوب فوق جميع الآلهة، لأن كل آلهة الأمم أصنام وأما الرب فقد صنع السموات ».

ويقول في مكان آخر (يا رب ليس مثلك، ولا إله غيرك حسب كل ما

سمعناه بآذاننا).

ومن كلامه في وصيته ولده سليمان عليه السلام.

يا بني قد كان في قلبي أن أبني بيتا لاسم الرب إلهي فكان إلي كلام الرب قائلا قد سفكت دماً كثيرا وعملت حروبا عظيمة فلا تبني بيتاً لإسمي، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحة من جميع أعدائه حواليه، لأن اسمه يكون سليمان، فأجعل سلاماً وسكينة في إسرائيل في أيامه، هو يبني بيتاً لإسمي، والآن يا بني ليكن الرب معك فتفلح وتبني بيت الرب إلهك كما تكلم عنك إنما يعطيك الرب فطنة وفهماً ويوصيك بإسرائيل لحفظ شريعة الرب إلهك، حينئذ تفلح إذا تحفظت لعمل الفرائض والأحكام التي أمر بها الرب موسى لأجل إسرائيل.

وأنت يا سليمان إنني أعرف إله أبيك وأعبده بقلب كامل ونفس راغبة، لأن الرب يفحص جميع القلوب ويفهم كل تصورات الأفكار، فإذا طلبته يوجد معك وإذا تركته يرفضك إلى الأبد.



وأما سليمان عليه السلام فإنه بعد أن أنفذ وصية أبيه داود وبنى بيت أورشليم صعد على منبر ووقف تجاه إسرائيل وخطب فيهم قائلا ما ملخصه أيضاً:.

« أيها الرب إله إسرائيل، لا إله مثلك في السماء والأرض، حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم، فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي، واسمع الصراخ والصلاة التي يصليها عبدك أمامك، واسمع تضرعات عبدك وشعبك إسرائيل الذين يصلون في هذا الموضع. واسمع أنت من موضع سكناك في السماء، وإذا سمعت فاغفر إن أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حلف ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك في هذا البيت، فاسمع أنت من السماء واقض بين عبيدك، إذ تعاقب المذنب فتجعل طريقه على رأسه وتبر البار إذ تعطيه حسب بره.

وإن انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لكونهم أخطأوا إليك ثم رجعوا واعترفوا بإسمك، وصلوا وتضرعوا أمامك، نحو هذا البيت، فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وارجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لهم ولآبائهم».

عيسى بن مريم عليهما السلام

وهو يمثل آخر طور من أطوار الديانة الإسرائيلية، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد جعله الله عز وجل هو وأمه آية في ولادتها ونشأتها حيث كان الشعب الإسرائيلي في ذلك الوقت قد فقد الروح الديني الصحيح وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة وأكب على المادة وارتكب الجرائم المروعة التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة النساء في قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ (١) وقوله قبل ذلك ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ (٢).

فأراد الله سبحانه أن يهز في هذا الشعب ما جمد من عواطفه ويحرك فيه المعاني الروحية التي نسيها، فأجرى له ثلاث آيات كبار جاءت متتابعة متقاربة؛ الأولى في ولادة مريم عليها السلام وكانت أمها حمنة عقيما لا تلد، فنذرت إن رزقها الله يولد لتهبنه لخدمة بيت المقدس، فلما وضعتها أسفت لكونها أنثى لا تصلح للخدمة، وقالت تعتذر إلى الله ﴿رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (٣) ولكن الله قبلها منها وأنبتها نباتاً حسناً، فذهبت بها إلى العلماء في بيت المقدس وألقتها بين أيديهم وقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا في

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٦٠ - ١٦١.

(٢) سورة النساء الآية ١٥٥.

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٦.

كفالتها، ولكن الله كفلها زكريا عليه السلام لأن خالتها كانت تحته، وقد جعلها زكريا في محراب المسجد فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أني لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فأطمع هذا زكريا عليه السلام في أن يرزقه الله الولد ولو في غير اوانه، فدعا ربه بهذا الدعاء الضارع الذليل متوسلا إلى الله بأحب الوسائل إليه، وهو إظهار الضعف والافتقار إلى الله بأحب الوسائل إليه، وهو إظهار الضعف والافتقار إلى الله والرغبة إليه وحده فقال ﴿رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾ [1] فما فارق زكريا المحراب حتى نادته الملائكة مبشرة له بأن الله قد وهبه يحي مصدقا بكلمة من الله وسيد وحصوراً ونبياً من الصالحين.

وعجب زكريا من أن يكون له غلام على كبر منه وعقم من زوجه، فقيل له كذلك الله يفعل ما يشاء، وطلب آية تدل على حمل امرأته فقيل له آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا.

وولد يحي عليه السلام فشب على الطهر والاستقامة وكان آية في ورعه وزهده وطاعته لربه وبره بوالديه وآتاه الله العلم والحكمة ومنّ عليه بالرسالة، وقد روى أنه لم يهم بمعصية قط وأن الأولاد كانوا ينادونه وهو صغير ليلعب معهم فيقول لهم (ما للعب خلقنا).

ويحيا هذا هو الذي يسميه بنو إسرائيل (يوحنا المعمدان) وكان هو الآية الثانية لبني اسرائيل.

وأما الثالثة فكانت ولادة عيسى عليه السلام ولا نجد فيما يتعلق بها أروع ولا

---

(١) سورة مريم الآيات ٤ - ٦.

أصدق مما قصه علينا القرآن الكريم في سورة مريم حيث يقول ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ـ إلى قوله تعالى ـ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ (١).

دعوة عيسى عليه السلام إلى التوحيد

ذكر القرآن الكريم في معرض الرد على النصارى في ادعائهم بنوة عيسى عليه السلام وفي قولهم إن الآلهة ثلاثة، أنهم غيروا رسالة عيسى وخالفوا دعواته، فإنه ما دعاهم إلا بما كانت الرسل قبله تدعو إليه من توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (٢).

وقال في سورة المائدة: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح إبن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ (٣).

وقال في سورة الزخرف: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (٤).

---

(١) سورة مريم الآيات ١٦ ـ ٣٤.
(٢) سورة آل عمران الآيات ٤٨ ـ ٥١.
(٣) سورة المائدة الآية ٧٢.
(٤) سورة الزخرف الآيتان ٦٣ ـ ٦٤.

ويحكى الله عز وجل لنا في سورة المائدة صورة لما سيكون يوم القيامة حين يسأل عيسى عليه السلام عما يقوله النصارى من أنه أمرهم أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله فيجيب على ذلك البهت بهذا الجواب المفحم الرصين ﴿سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما امرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [1].

وهكذا في كل موضع من هذه المواضع يؤكد القرآن الكريم براءة عيسى عليه السلام مما نسب إليه ويقرر أنه ما كان إلا واحداً من هؤلاء الرسل الذين بعثوا بالدعوة إلى التوحيد وإبطال عبادة الطاغوت.

الدعوة إلى التوحيد في الأناجيل

وإذا نحن تجاوزنا عن إنجيل برنابا الذي لا يعترف به النصارى والذي يصرح بأن عيسى عليه السلام مجرد عبد رسول ليس إلهاً ولا ابن إله، وتأملنا في الأناجيل الأربعة المعتبرة عندهم، وهي إنجيل متى ويوحنا ومرقص ولوقا نجد فيها إشارات بل عبارات صريحة في التوحيد.

ففي إنجيل متى في الإصحاح الرابع يقول إبليس للمسيح: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى اسفل، فإنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك، فيقول له المسيح: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك.

وحين أخذه إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ ـ ١١٨.

وفي الإصحاح السادس يقول المسيح لتلاميذه: « فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ليات ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافا، أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين ».

وفي الإصحاح الثاني والعشرين يقول (أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله ابراهيم وإله اسحاق وإله يعقوب. ليس الله إله أموات، بل إله أحياء).

وفي إنجيل مرقس من الإصحاح الثاني عشر يسأل أحد الكتبة يسوع: أية وصية هي أول الكل؟ فيجيبه بأن أول كل الوصايا هي إسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى.

وفي إنجيل لوقا عند تعليم المسيح لتلاميذه ما يقولون في الصلاة نحواً مما سبق في إنجيل متى مع اختلاف يسير في العبارة.

وفي الإصحاح الثامن عشر: (وسأله رئيس قائلا: أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله).

وفي إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس « كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه ».

وفي الإصحاح السابع عشر من هذا الإنجيل يقول يسوع المسيح (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته).

هذه هي بعض نصوص الأناجيل تشهد بلسان صدق على المسيح عليه السلام

أنه دعا إلى عبادة الله وحده، ولم يدع أحداً إلى عبادة نفسه وأما ما جاء فيها كثيرا من قوله أبي الذي أرسلني ونحو ذلك فيجب حملها على المجاز وأن مراده به أبوة الرعاية والرحمة إذ لو حمل على الأبوة الحقيقية كما يزعم النصارى لتناقض مع هذه النصوص المحكمة التي نقلناها من الأناجيل الأربعة، وللزم أيضاً أن يكون الله عز وجل أبا لغير المسيح فقد ورد إضافة هذه الأبوة إلى أتباعه حيث كان يقول لهم: (أبي وأبوكم الذي في السموات).

ظهور الشرك في المسيحية وعبادة القديسين

لعل أمة لم تضل في دينها كما ضلت النصارى، ولعل أمة لم تختلف في نبيها وتغل في شأنه، كما اختلفت النصارى وغلت، والقرآن الكريم ينبه على هذا الضلال الذي وقع فيه النصارى في آيات كثيرة فقد ورد في تفسير قوله تعالى من سورة الفاتحة ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [1] حديث مرفوع، يقول اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.

ويقول سبحانه في سورة النساء، ناهيا لهم عن الغلو واتباع الهوى والانسياق وراء العاطفة الهوجاء ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فامنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خير لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا﴾ [2].

ويقول في سورة المائدة ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ [3].

ولا تكاد تخلو عقيدة من العقائد الأساسية عند النصارى من إغراق في الوهم وجموح في الخيال ونزوع إلى المغالاة فعقيدة التثليث والبنوة والصلب والفداء كلها

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٨.

(٢) سورة النساء الآية ١٧١.

(٣) سورة المائدة الآية ٧٧.

عقائد تجافى العقل مجافاة صارخة وتتحداه تحدياً سافراً ومع ذلك تجد من يؤمن بها ويتعصب لها. وهي لم تقم إلا على شبهات واهية لبس بها الشيطان على هذه الأمة ليفتنها عن دينها ويفسد عليها أمرها فإن وجود ولد بلا أب ليس خارجاً عن نطاق القدرة الإلهية، ولا يوجب أبداً نسبة هذا الولد إلى الله، فقد خلق آدم بلا أب ولا أم، وأعطى زكريا الولد على شيخوخة منه وعقم من امـرأته، وكذلك وهب الله إسحاق لإبراهيم وهو وسارة شيخان كبيران وما ورد في الإنجيل من لفظ البنوة لا يوجب أن تكون بنوة حقيقية، وكذلك ما ورد فيه من تلقيب عيسى عليه السلام بأنه روح الله أو كلمته لا يقتضي أن يكون هو الله ولا أن يكون جزءاً من الله، فإن الروح اسم لما به الحياة ولا شك أن عيسى كان حياة لمن أرسل إليهم، جاءهم بما فيه حياة لأرواحهم وقلوبهم. وأما كونه كلمة الله فلأنه خلق بالكلمة التي هي قوله تعالى ﴿كن﴾ دون توسط الأسباب العادية.

وهكذا لو أنصف القوم لوجدوا لهذه النصوص محامل صحيحة لا تفضي إلى ما يجبله كل عقل من نسبة الزوجة والولد إلى الله.

وأما عقيدة الصلب والفداء التي هي أساس دينهم فقد لقي القرآن أن يكون عندهم يقين بها وأنهم إنما أتبعوا فيها الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً قال تعالى ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيز حكيماً﴾[1].

وقد نسبح الخيال المحموم لهذا الفداء قصة طويلة مليئة بالمتناقضات التي لا يقبلها عقل كقولهم إن آدم حين عصى الله بالأكل من الشجرة ووقع في الخطيئة استحق هو وذريته العقوبة وظل الرب يفكر في طريقة يجمع بها بين رحمته وعدله، لأنه إن عاقب آدم وذريته كان ذلك منافياً لرحمته، وإن عفا عنهم كان ذلك منافياً لعدله وأخيراً اهتدى إلى الحل وهو أن يفدي البشر بنفسه فنزل في

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٧ ـ ١٥٨.

بطن أنثى من خلقه، وظل حبيساً به مدة الحمل، ثم خرج وعاش دهراً طويلاً بين الناس يأكل ويشرب ويلتذ ويألم: ثم مكن أعداءه من نفسه ليقتلوه أشنع قتلة، ويصلبوه على الخشبة وكل ذلك إنما تحمله من أجل أن يفدي خطيئة آدم وذريته. ولسنا هنا بصدد نقد هذه الحماقة التي يضحك منها أبسط العقول[1].

ويكفي القارىء أن يرجع إلى كتاب (عقيدة الصلب والفداء) للسيد رشيد رضا رحمه الله. ولكنا نعجب أن يقوم دين على خرافة تمرغ الله في الوحل، وتسقيه كأس الضراعة والذل، وتصفه بمنتهى العجز عن غفران خطايا خلقه إلا إذا قدم نفسه أو ولده قرباناً.

وأما مبدأ التغير في دين المسيح عليه السلام حتى لم يبق في أيدي النصارى منه شيء الآن فيذكر ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) أن أمرهم قد استقام على السداد نحو ثلا ثمائة سنة ثم أظهر (آريوس) مقالته التي أنكر فيها لاهوت المسيح وحكم بأنه مخلوق محدث ليس مولوداً من ا لله وأنه لا يساويه في الجوهر[2] وكان يعلل رأيه بقوله كيف تتفق دعوى وحدة الإله مع جعل عيسى إلهاً أيضاً، فلم ترض مقالته هذه رجال الكنيسة، فمنعه بطريق الإسكندرية من دخول الكنيسة ولعنه، فخرج آريوس إلى الإمبراطور (قسطنطين) يستعديه على ذلك البطريق وتناظرا بين يديه، فقال قسطنطين (لآريوس) اشرح مقالتك، فقال أقول (إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الإبن فكان كلمة له إلا أنه محدث، ثم فوض الأمر إلى ذلك الإبن فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما ثم إن تلك الكلمة اتخذت بعد من مريم العذراء ومن روح القدس فصار ذلك مسيحاً واحداً فالمسيح الآن كلمة وجسد إلا أنهما جميعاً مخلوقان فقال بطريق

---

(١) وحدة الدين لأبي الفيض ص ١٣٢، الجانب الإلهي الدكتور البيهمي الجزء الأول ص ١٠٦.

(٢) يقول العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان (وهذه الأمة إرتكبت محظورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل، أحدهما الغلو في المخلوق حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه وإلهاً آخر معه والثاني تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم إلخ).

الإسكندرية فأيما أوجب علينا عندك؟ عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟ قال آريوس بل عبادة من خلقنا ـ قال البطريق فعبادة الإبن الذي خلقنا وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق بل تصير عبادة الأب الخالق كفر أو عبادة الإبن المخلوق إيماناً (١).

فاستحسن الملك والحاضرون قول البطريق ومن معه، وأمر الملك أن يلعنوا آريوس وأهل مقالته فانتهز البطريق هذه الفرصة وطلب من الملك أن يجمع البطارقة والأساقفة للإتفاق على عقيدة واحدة فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق حتى اجتمع عنده منهم ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً (٢) وكانوا مختلفي الآراء متبايني الأهواء، فكثر لغطهم ولم يتفق منهم إلا ٣١٨ أسقفاً على رأي، وناظروا فيه بقية الأساقفة وظهروا عليهم، فعقد لهم الملك مجلساً خاصاً جلس في وسطه، ودفع إليهم خاتمه وسيفه وقضيبه، وقال لهم: سلطتكم على المملكة فاصنعوا ما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم، فباركوه عليه وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه، ودفعوا إليه الأمانة التي اتفقوا على وضعها. فلا يكون عندهم نصراني من لم يقربها، ولا يتم له قربان إلا بها، وهي هذه:

« نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع بن الله الواحد، بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع، إله حق من إله حق من جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً، وحمل به ثم ولد من مريم البتول وأولم وأوجع، وقتل وصلب ودفن، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء مرة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه، روح محيية وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية

(١) الدين الخالص ج ٢ ص ٤٦٣.

(٢) كان هذا المجتمع في نيقية سنة ٣٢٥.

جابلنقية وبقيامة أبداننا والحياة الدائمة أبد الآبدين، وافترقوا على هذه العقيدة وعلى لعن من خالفها».

ثم تعددت مجامعهم بعد ذلك وفي كل مرة يعلنون تمسكهم بهذه العقيدة ويزيدون عليها ضلالات ويلعنون ويكفرون كل من خرج عليها من أساقفتهم، ففي عام ٤٥٠م قرر مؤتمر الكنيسة البيزنطية تحت رعاية الامبراطورة بولشيريا المنعقد بمدينة خلقيدون بآسيا الصغرى اعتبار نسطور وجماعته خارجين عن الجماعة المسيحية المؤمنة ومستحقين للعنة الرب والمسيح بسبب أنهم أنكروا وجود ثلاث ذوات مستقلة، وقالوا إن هذه الألفاظ: اللّه والكلمة والروح القدس ترجع مدلولاتها إلى شيء واحد ولا تدل على ذوات ثلاث في واقع الأمر، بل اللّه هو الذات الواحدة، وهو وحده أصل العالم، وكلمته على معنى علمه والروح القدس على معنى القوة المدبرة حالان أو اعتباران لذاته[١].

والخلاصة أن جميع المذاهب المسيحية المعروفة الآن مهما أختلفت في تحديد شخصية المسيح فإنها مؤهلة ليس فيها من يدين بدين الحق الذي يجعل عيسى مجرد رسول من عند اللّه ليس إلهاً ولا ابن إله بل هو في معتقدهم الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس وكلمة اللّه المتجسد من مريم العذراء لخلاص العالم[٢].

وقد صح عن رسول اللّه ﷺ أنه قال «لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد اللّه ورسوله»

العناصر الوثنية في الديانة المسيحية

ذكرنا أن التغيير الذي طرأ على المسيحية بعد رفع المسيح عليه السلام كان تغييراً جذرياً تناول المسيحية من أساسها، فلم يبقَ شيء مما جاء به المسيح معروفا إلا بعض بقايا أخلاقية تتعلق بتهذيب النفس وضروب الزهد، وأما العقائد

(١) الجانب الإلهي الجزء الأول ١٢١.

(٢) المنجد في الأدب والعلوم للويس معلوف ص ٥٧٤.

نفسها فقد تناولها كلها التبديل ودخل إليها الفساد بتأثير العناصر التي دخلت في المسيحية، وكانت قبل ذلك تدين بالوثنية، فما لبثت هذه العناصر أن بثت أفكارها وعقائدها في الدين الجديد، وتناولت نصوصه بالشرح والتأويل الذي يجعلها متسقة مع عقائدهم الوثنية.

وقد حاول بعض الباحثين أن يعقد موازنة بين عقيدة المسيحيين في المسيح وبين ما تقوله الهنود الوثنيون في كرشنة، وقابل النصوص الدينية عند المسيحيين بمثيلها عند الهنود، حتى بلغ من وجوه المقابلة بينهما ستة وأربعين وجهاً، ثم قال في نهاية ذلك (وهذا شيء قليل من كثير أكتفينا به حباً للإختصار)[1].

ثم عمد إلى إجراء مثل هذه الموازنة بين عيسى وبوذا، مقابلاً كل نص عند المسيحيين بمثله من أتباع بوذا مما لايترك مجالاً للشك في أن عناصر مخربة دخلت في المسيحية بقصد إفسادها وإلقائها في حمأة الوثنية.

ويطول بنا القول لو حاولنا أن نعدد وجوه المشابهة التي ذكرها هؤلاء الباحثون. ويكفي أن نذكر أن من أهمها القول بالتثليث؛ فهو موجود في كافة الديانات الوثنية. وعقيدة الفداء والصلب لتخليص العالم من الخطيئة، والقول بتجسد الإله المخلص ونزوله إلى الأرض وولادته، وظهور نجم في السماء عند ولادته وحدوث الظلمة في الأرض عند قتله وتجربة الشيطان لأبناء الآلهة المخلصين ونزولهم إلى الجحيم لتخليص الأموات. كل هذه العقائد وغيرها موجود في المسيحية كما هو موجود تماماً في غيرها من الديانات الوثنية.

عبادة الرهبان والقديسين

لم يقف النصاري في وثنيتهم عند هذا الحد من عبادة المسيح وأمه وروح القدس، بل تعدوا ذلك إلى عبادة الرهبان والقديسين كما قال تعالى: ﴿اتخذوا

(١) كتاب العقائد الوثنية في الديانة النظرية تأليف محمد طاهر التنير.

آخر، أو بأخبار نقل ضريح من مكان إلى آخر. وكان اهتمام الناس بهذه الأخبار يماثل اهتمامنا اليوم بأعياد النصر.

وكانت الطرق بين المدن لا يطرقها إلا حجاج مؤمنون مخلصون يؤمون قديساً مشهوراً بقضاء حاجة في أنفسهم.

ومما يحكى أن فيليب الطويل لم يشف من الحمى الرباعية إلا بعد أن لمس المسمار المقدس وذراع القديس سيميون الذي كان يعبده الناس في مدينة سان دنيس، وقد صنعت هاتان البروكتان معجزة الشفاء أيضاً في دوق (نورماندیا) ابن الملك فيليب دي فالو ومع أن شفاءه لم يتم إلا بعد ستة أسابيع إلا أنه أصر على السفر إلى سان دنيس لتقديم الشكر.

وكان المؤمن المخلص في إيمانه يعتقد أن من يستعمل الطب إنما يسب القديسين، وأن جميع الأمراض تشفيها مقدساتهم.

ويقال إن أحد الأتقياء مرض فقصد طبيباً فظهرت له السيدة العذراء وأنذرته بأنه سيظل طول حياته مريضاً إن هو لم يتوجه للعلاج إلى إحدى النوتردامات، ولم يشرك معها في علاجه أحداً إلى أن يقول ولم يكد يمر يوم من غير أن يسمع الناس فيه بشفاء أحد المرضى بتأثير بركة أحد الآثار المقدسة، ولم تكن الأقطار الكاثوليكية تشغل نفسها بأي شيء غير شد الرحال إلى الأضرحة، وكان شد الرحال إلى الأرض المقدسة أهم الأعمال التي كان يقوم بها أتقى الأتقياء وكانت المعبودات منتشرة في كل مكان حتى أصغر القرى وأبسط الأديرة، وعلاوة على هذه الكنوز المقدسة المحفوظة في الكنائس كانت فئة من الناس الذين كانوا يحملون الآثار المقدسة معهم من صورة وعظام ويتجولون بها من قرية إلى قرية، وكانت النساء تتهافت عليهم فيلمسن بهذه الأشياء المقدسة قطعاً من القماش أو المسابح لكي يكتسبن بها بركة القديسين نظير قروش قليلة إلى أن يقول:

وكانت الآثار المقدسة متصفة بقوة هائلة حتى إن الناس كانوا يصنعون آثاراً

مقدسة من كل شيء، ففي عام ١٧٥٦ عثر سكان قرية بون دي شاتو بإقليم أوفرني بفرنسا على صندوق يحتوي على جثة طفل محنطة على الطريقة الشرقية، وكانت الجثة لا تزال محتفظة بنضارتها وهيئتها على الطريقة الشرقية فاعتبروها معجزة واعتبروها مقدسة وحجوا إليها وعبدوها إلى أن صدر أمر من الحكومة بالإستيلاء عليها ووضعها في أحد متاحف التاريخ الطبيعي بباريس.

وكان هذا الدين الخرافي المبني على عبادة التصاوير والمقاصير والأضرحة وغيرها من الآثار المقدسة متفشياً في كل مكان ولذلك كانوا يحرقون من يقصر في احترام تمثال من تماثيل القديسين ويجلدون الذين لا يبجلون الآثار المقدسة تبجيلاً لائقاً.

وبعد فهذه هي المسيحية الموجودة الآن في عقائدها وتصوراتها وأفعال أهلها لا نكاد نلمح في تضاعيفها أثارة تربطها بأصلها الأول بل هي ديانة جديدة من وضع قسطنطين اتخذت من المسيح محوراً تدور حوله جميع عناصرها الوثنية.

اسماعيل عليه السلام

هو ولد إبراهيم خليل الرحمن من هاجر التي كانت أمه لزوجته سارة أهداها إليها فرعون مصر فوهبتها لإبراهيم وأذنت له في التسري بها عسى أن تأتي له بولد، فولدت له إسماعيل عليها الصلاة والسلام.

وقد تحدث القرآن الكريم عن إسماعيل في غير موضع يذكره في بعضها مع أبيه إبراهيم وفي بعضها الآخر يذكره وحده.

ففي سورة البقرة يذكره بمناسبة قيامه مع أبيه في بناء البيت الحرام فيقول: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩.

ويذكره كذلك في جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بما أنزل إليهم فيقول: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم إليهم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [١].

وفي سورة النساء يذكر في جملة الأنبياء الذين نزل الوحي عليهم قال تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم تقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ [٢].

ويذكر كذلك في سورة الأنعام ومريم، والأنبياء والصافات وص، إلا أن الصافات تختص من بينها بذكر تلك القصة المثيرة التي ابتلى فيها ابراهيم بذبح ولده إسماعيل وتصور لنا إسماعيل في صورة الشاب الصابر المستسلم لأمر الله، المعين لأبيه على تنفيذه حيث يقول له عندما أخبره برؤياه ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [٣].

وكذلك ورد ذكر إسماعيل في كتب العهد القديم، فقد جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين (واما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية إسمها هاجر، فقالت ساراي لإبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين)،فسمع إبرام لقول ساراي.

فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام في ارض كنعان وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له، فدخل على هاجر فحبلت، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين إبناً وتدعين إسمه إسماعيل، لأن الرب قد سمع لمذلتك وانه يكون إنسانا وحشياً يده على كل واحد ويد كل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦.

(٢) سورة النساء الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) سورة الصافات الآية ١٠٢.

واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن. فولدت هاجر لإبرام ابناً ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل.

وفي الإصحاح السابع عشر (قال ابراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو إسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جدا وإثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة).

فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته، وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت ابراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عشية كما كلمه الله، وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين حين ختن في لحم غرلته، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته.

وفي الإصحاح الحادي والعشرين (ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق، فكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزاً وقربة ماء واعطاها لهاجر واضعاً إياهما على كتفها، والولد وصرفها، فمضت وتاهت في برية سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد، فجلس مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران وأخذت له امه زوجة من أرض مصر).

وفي سوق القصة على هذا النحو تحريف كثير يظهر للقاري عندما يقارن بينه

وبين ما صح به الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندها جراب فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفي ابراهيم منطلقاً، فتبعته أم أسماعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب؟ وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت إذاً لا يضيعنا.

ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ [1] حتى بلغ ﴿يشكرون﴾ وجعلت أم اسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش إبنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحد، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذرعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ﷺ: (فلذلك سعى الناس بينهما) فلما أشرفت على المـروة سمعت صوتاً، فقالت «صه» تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت (قد أسمعت إن كان عندك غواث) فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف ـ قال ابن عباس قال

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٧.

النبي ﷺ : (يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً) قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك لا تخافي الضيعة، فإن ها هنا بيتاً لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائدا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم اسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عنك؟ قالت نعم، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ : (فألفي ذلك أم اسماعيل وهي تحب الإنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه، فقالت خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت نحن بشر، نحن في ضيق وشدة فشكت إليه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً، فقال هل جاءكم من أحد ؟قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنا كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشيء؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبي وقد امرني أن أفارقك فألحقي بأهلك وطلقها وتزوج منهم بأخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعده فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت خرج يبتغي لنا، قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم،

فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل، قال ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال فما شرابكم؟ قالت الماء قال (اللهم بارك لهم في اللحم والماء) قال النبي ﷺ (ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه، قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه) قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته: أنا بخير، قال فأوصاك بشيء؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر، قال فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني؟ قال وأعينك، قال فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهم يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [1] قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم﴾.

وهكذا يقوم ابراهيم خليل الرحمن وولده إسماعيل عليهما السلام بتنفيذ أمر الله إليهما في بناء البيت الحرام ليكون مثابة للناس أمناً، وليكون متعبدا لله في أرضه تهوى إليه أفئدة الموحدين، قال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ [2].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٧.

(٢) سورة الحج الآيات ٢٦ - ٢٨.

قصة الذبح ودلالتها على سمو التوحيد

قال الله تعالى في سورة الصافات في شأن ابراهيم عليه السلام ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إن كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم﴾ (١).

وقد اختلف العلماء في أيهما كان الذبيح إسماعيل أم اسحاق؟ والذين ذهبوا إلى أنه إسحاق قد تأثروا في ذلك بكلام كعب الأحبار الذي كان يهودياً ثم أسلم في زمان عمر رضي الله عنه، فكان يروى ما عنده من إسرائيليات، وكان كثير من الصحابة رضي الله عنهم يحسنون به الظن، فيأخذون مما يرويه لهم من غث العلم وسمينه، ولكن الذي رجحه كثير من السلف أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وقد روى ابن كثير في تفسيره عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول (إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني ابراهيم قال ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ (٢).

ويقول تعالى: ﴿فبشْرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (٣) يقول بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي امر بذبحه إلا إسماعيل).

وقد أورد العلامة ابن القيم في كتابه زاد المعاد من الحجج على هذا الرأي ما لا يبقى معه شك في أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وأما ما تزعمه اليهود من

---

(١) سورة الصافات الآيات ٩٩ ـ ١٠٧.

(٢) سورة الصافات الآية ١١٢.

(٣) سورة هود الآية ٧١.

أن الذبيح هو إسحاق، فهو مما حرفوه من كتابهم، حسداً منهم أن يكون الذبيح هو إسماعيل أبو العرب وأياً ما كان فقد كان كل منهما كما قال ابن كثير طيباً طاهراً مطيعاً لله عز وجل، والذي يهمنا هنا هو ما تحمله القصة من معاني التضحية والإخلاص وإيثارة الله عز وجل على كل محبوب، فهذا والد قد تقدمت به السن ودلفت اليه الشيخوخة يؤمر بذبح ولده ووحيده بعدما كبر وبلغ السعي معه، فلا يتباطأ ولا يتريث بل ينهض من فوره لتنفيذ أمر ربه، فيعرض الأمر على ولده كأنه يستشيره، فلا يكون من الولد إلا أن يبدي من الثبات والصبر ما يثير الإعجاب، بل ويتعجل والده تنفيذ الأمر قائلا له ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ (١).

ثم يبلغ البلاء بهما اقصى غاياته حين يصرع إبراهيم ولده على جبينه ويضع السكين على رقبته: فلا يلبث أن يأتيه النداء الإلهي بالفداء، فيا لها من لحظة لا تصبر لها إلا قلوب الصديقين والمخلصين من أمثال الخليل وولده إسماعيل، ويا له من موقف من مواقف التوحيد الرائعة التي كان الخليل إماماً فيها والتي استحق بها ما أعطاه الله من كرامة في هذه الدار حيث جعل الأنبياء جميعاً من ذريته، وجعل له لسان صدق في الآخرين فوق ما أعد له في الأخرة من جزاء يناسب ما أبلى في سبيل التوحيد وما قام به من جليل الأعمال.

رسالة اسماعيل عليه السلام

قال الله تعالى في سورة مريم: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ (٢).

فرسالة إسماعيل عليه السلام إنما كانت للعرب الذين نشأ بينهم وتزوج منهم من قبيلة جرهم على ما سبقت الرواية به عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولكن

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢.

(٢) سورة مريم الآيتان ٥٤ ـ ٥٥.

شريعته كانت قد درست ولم يبق منها إلا بقايا تتعلق ببعض أعمال الحج من الطواف بالبيت وتعظيمه، والوقوف بعرفة ومنى والذبح والتلبية ونحو ذلك، وقد اختلطلت هذه الأعمال عند العرب بمظاهر الشرك، واتخذ البيت الحرام الذي بني لعبادة الله عز وجل وحده مكانا لعبادة الأصنام.

متى حدث الشرك في العرب

قال الكلبي في كتابه (الأصنام) (إن إسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليهما، لما سكن سكن مكة وولده بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش.

وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصبابة بالحرم وحباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح (عليه السلام) منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه) أ هـ.

فهذه الرواية تفيد أن سبب عبادة العرب للأصنام هو تعظيمهم للحرم وللبيت الحرام، فلما اضطرتهم ضرورة العيش إلى النزوح عنه اتخذوا منه حجارة تذكرهم به ويطوفون حولها كما كانوا يطوفون حوله، ثم نسوا ذلك بعد أمد،

واتخذوا هذه الحجارة آلهة يعبدونها من دون الله.

ولكنا نجده في مكان آخر من نفس الكتاب يذكر رواية أخرى في سبب عبادة العرب للأصنام وابتداء حدوث ذلك فيهم فيقول[1].

« فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الاوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامي عمرو ابن ربيعة وهو ـ أي ربيعة ـ لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة، وكانت أم عمرو بن لحى، فهيرة بنت عمرو بن الحارث، ويقال قمنعه بنت مضاض الجرهمي.

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة، فلما بلغ عمر وبن لحى نازعة في الولاية وقاتل جرهماً ببنى إسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم.

ثم أنه مرض مرضاً شديداً فقيل له أن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة».

وفي مكان آخر يقول (إن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن يكنى أبا ثمامة. فقال له عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة فقال له عمرو: جيرو لا إقامة، قال ائت ضعف جده، تجد فيها أصناماً معدة، فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب).

فأتى شط جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة، فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات فدفع اليه (وداً) فحمله إلى وادي القرى فأقره بدومة الجندل وجعل ابنه عامراً سادناً له، فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام وأجابته كذلك مضر بن نزار فدفع إلى رجل

---

(١) كتاب الأصنام للكلبي ص ٨.

منهم يقال له الحارث بن تميم بن سعد هذيل سواعاً فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخله، يعبده من يليه من مضر.

وأجابته مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث، وكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج، وأجابته همدان، فدفع إلى مالك بن مرثد يعوق، فكان بقرية يقال لها (خيوان) تعبده همدان ومن والاها، وأجابته حمير فدفع إلى رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب نسرا، فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها. ثم يقول: (فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبي ﷺ فأمر بهدمها).

ويستشهد ابن الكلبي لهذه الرواية الثانية في سبب عبادة العرب للأصنام بحديث يرويه عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (رفعت لي النار فرأيت عمراً رجلا قصيراً أحمر أزرق يجر قصبه في النار، قلت من هذا؟ قيل هذا عمرو بن لحي أول من بحر البحيرة ووصل الوسيلة وسيب السائبة، وحمى الحامي، وغير دين إبراهيم، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان).

وسواء صحت هذه الرواية أم تلك في سبب عبادة العرب للأصنام فقد انتشرت تلك العبادة فيهم حتى لم يبق حي ولا قبيلة في العرب إلا ولها صنم تعبده وجاء الإسلام والأصنام تملأ جوف الكعبة وتحيط بها، وكانت كل قبيلة من العرب تحج كل عام إلى صنمها تذبح له وتطيف به وتستشيره في مهامها.

أشهر الأصنام عند العرب

ذكرنا أن (عمرو بن لحي جاء بعدد من الأصنام من البلقاء بالشام أو استثارها من مكانها بجدة، وأنه دعا العرب إلى عبادتها في موسم الحج، فأجابته بعض القبائل إلى ما دعا إليه فوزع عليهم هذه الأصنام التي كانت تسمى بأسماء أصنام قوم نوح وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً).

ومن أشهر أصنامهم كذلك (اللات والعزى ومناة) وهي التي ذكرها الله عز وجل في سورة النجم في قوله ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ [1].

أما اللات فكان ابن عباس يقول إنه كان رجلا يلت السويق للحجيج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوا ولهذا كان يقرأ اللات بتشديد التاء، وقيل إنه كان صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وكانت تعبدها ثقيف ومن تابعها ويفخرون بها على من عداهم من أحياء العرب، وأنهم اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عما يقولون.

وأما العزى فكانت عبارة عن ثلاث سمرات ببطن نخلة، كانت تعبدها قريش وتخصها بالزيارة والهدية دون غيرها، ولهذا لما ظهر المشركون على المسلمين بأحد نادى أبو سفيان (لنا العزى ولا عزى لكم فامر النبي ﷺ أصحابه أن يردوا عليه بقولهم ﴿الله مولانا ولا مولى لكم﴾.

ولما افتتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان من الهجرة بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العزى وقطع السمرات الثلاث، ويروى المقريزي في كتابه (إمتاع الاسماع) بروايته عن الواقدي أن خالد بن الوليد هدم العزى لخمس بقين من رمضان سنة ثمان، وكان سادنها أفلح بن النضر الشيباني من بني سليم، وأنه لما رجع إليها بأمر رسول الله ﷺ ليهدمها جرد سيفه فإذا امرأة سوداء عريانة ناشرة شعر الرأس فجعل السادن يصيح بها لتحمل على خالد، قال خالد وأخذني اقشعرار في ظهري. قال فأقبل خالد بالسيف وهو يقول يا عز كفرانك لا سبحانك. إني رأيت الله قد أهانك. قال فضربها بالسيف فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال نعم تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب أما أنها لن تعبد بعد اليوم، ثم قال خالد (أي رسول الله الحمد لله الذي أنقذنا بك من الهلكة).

وأما مناة فكان من أقدم أصنامهم، وكانت العرب تسمى به فتقول عبد مناة وزيد مناة، وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة

---

(١) سورة النجم الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

ومكة، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله، ولم يكن أحد أشد إعظاما له من الأوس والخزرج حتى إنهم كانوا إذا حجوا وقفوا المواقف كلها مع الناس لا يحلقون رؤوسهم حتى يأتوه فيحلقوا عنده ويقيموا عنده أياما لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك، وقد بعث إليها النبي ﷺ عليا وهو في طريقه إلى مكة عام الفتح فهدمها..

ومن أعظم أصنامهم كذلك هبل، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب، ويقال إن أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر حتى إنه كان يقال له هبل خزيمة.

قال ابن الكلبي (وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً).

فلما بعث الله نبيه وأتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له قالوا: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾ [1] يعنون الأصنام. واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم (الدوار).

هذا قليل من كثير يبين لنا ما كانت عليه الحال في جزيرة العرب من تمرغ في أوحال الشرك وأرجاس الوثنية قبل أن يطهرهم الله بالإسلام.

---

(١) سورة ص الآية ٥.

الدعوة المحمدية

(حال العالم قبيل البعثة)

روى الإمام أحمد رضي الله عنه عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « وإن ربي أمرني أن أعلمكم مما جهلتم مما علمني في يومي هذا ، كل مال نحلته عبدي حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من بني إسرائيل ، وقال إني بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان الخ » .

والشاهد من هذا الحديث هو قوله عليه السلام : « ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم - عربهم وعجمهم - إلا بقايا من بني إسرائيل » فإن معناه أن الأرض في هذه الفترة التي سبقت البعثة المحمدية كانت قد أطبق عليها ليل الشرك ، ولفها ظلام الوثنية ، واستشرى بأهلها الفساد والجهل ، حتى لم يبق منهم أحد على دين صحيح إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء المتقدمين ، ولهذا استحقوا مقت الله وغضبه .

لقد كان الناس في تلك الفترة بين وثنية جائرة تتخذ آلهتها من حجارة منحوتة وأصنام منصوبة ؛ تعكف عليها وتطيف بها وتذبح لها وتهتف بأسمائها وتستشيرها فيما تأتي من الأمور وتذر .

ومسيحية حائرة ضلت عن سواء السبيل فجعلت الآلهة ثلاثة ، وقالت إن المسيح ابن الله ، ونسبت إليه الخلق والتدبير وحساب الخلائق في يوم الدينونة ،

واتخذت من رهبانها وقديسيها أرباباً من دون الله، وتمرغت في أوحال الوثنية وتورطت في التقشف والرهبانية.

ويهودية مدمرة عثت في أرض الله بالفساد وأشعلت فيها نار الفتن ونقضت عهد الله وميثاقه، وأوغلت في المادية حتى نسيت حياة الروح وتلاعبت بنصوص كتابها حتى حرفتها عن مواضعها استجابة لشهوة الرؤساء واتخذت من الدين وسيلة للعصبية والاستعلاء.

ومجوسية فاجرة تدين بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر وتعبد النار وتجعل لها بيتاً تحج إليه وتقيم لها سدنة يذكرون لهيبها ويضرمون أوارها.

وكان هناك عدا هذه النحل جميعاً صابئة يعبدون الكواكب والنجوم ويعتقدون تأثيرها ويرجون رضاها ويقولون عنها إنها بنات الله كما قدمنا.

ودهرية زنادقة لا يدينون إلا بشرعة الهوى وعبادة الشهوات ولا يؤمنون ببعث، ولا حساب، ولا يعرفون لهم غاية وراء هذه الحياة الدنيا.

وقد جمع القرآن الكريم هذه النحل كلها أو معظمها في قوله تعالى من سورة الحج ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ (١).

وهكذا كان الدين الحق قد التبس على أهل الأرض كلهم، فتاهوا في بيداء الضلالة وتمرغوا في أوحال الجهالة وغرقوا في بحار الوثنية حتى أنقذهم الله ببعثة محمد ﷺ، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور: وأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، فكانت بعثته أعظم ما امتن الله به على الإنسانية كلها، قال تعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (٢) وقال ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (٣).

---

(١) سورة الحج الآية ١٧. (٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧. (٣) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

يقول بعض الكاتبين في هذا الصدد :

« وقبيل البعثة المحمدية كانت مشاكل البشر قد وصلت إلى مستوى عجزت معه أقوى الثقافات عن علاجها » .

فالعقائد كانت متراوحة بين اثنينية وتثليث وكثرة، واختلط الخالق في الأذهان بالمخلوق وعبد الناس كل ما سولت لهم أنفسهم أن يعبدوه من جماد ونبات وحيوان ومظهر طبيعي وإنسان.

وكان اضطراب العقيدة مظهراً لأضطراب البشر في كل ناحية فأينما نظرت وجدت الضلال مجسما والانحطاط مخيما والأوضاع قد استقرت على الباطل حتى أصبح الحق باطلا والباطل حقاً.

وفي هذا الوسط المخيف والقبو المظلم يولد الإنسان ويموت وهو لا يدري عن الإنسانية شيئاً ، يولد وينشأ داخل سجن رهيب قد شاده له المجتمع وأحكم عليه رتاجه، وساهم كل فرد دون شعور منه ـ في وضع أسسه وتدعيم كيانه. جدران هذا السجن هم أعضاء المجتمع نفسه، ونوافذه الخرافات والكهانة التى فرضها الكهنة لإخضاع العقل البشري لسيطرتهم، وسقفه استبداد الحكام بمصائر الأفراد والجماعات، وحراسه التقاليد الموروثة.

وهيهات في مثل هذه البيئات أن يعترف بحقوق الإنسان أو تترك للفرد الحرية اللازمة للنشأة السوية.

وبينما البشر على حالتهم هذه قد غرقوا في بحر لجى من الظلمات المتراكمة إذا بالنور المحمدي يشرق من مكة فيملأ الكون هدى وضياء.

سطع نور خاتم الرسل والأنبياء ﷺ لينقذ البشر من هذا الجحيم الذي أججوه لأنفسهم ثم ألفوا العذاب فيه، ويقيهم من التردي في مجاهل الانحطاط البشري البهيمي، ويرشدهم إلى السبيل السوي للحياة، ويهديهم سبل السلام بإذن الله تعالى، ويوضح لهم أسباب السعادة كاملة دنيا وأخرى.

وببعثته ﷺ تنفست الإنسانية الصعداء وأزاحت عن صدرها ذلك الكابوس الجاثم الذي صنعه البشر ليزهقها، وأخذت تدب فيها حرارة الإيمان بعد أن أوشكت برودة الموت أن تقضي عليها.

حرر ﷺ العبودية لله تعالى من كل عبودية للغير حساً ومعنى، لقد حررها من عبادة النفس والمخلوق والجاه والسلطان والقوة والتقاليد الموروثة والكهانة، والجن والشياطين هذا علماً بأن أقوى الثقافات الأخرى لم تستطع حتى الآن أن تخلص الإنسان من العبودية للإنسان أو استعباده.

وفتح ﷺ للعالمين أبواب معرفة الله عز وجل ليعرجوا في الكمالات على قدر ما في وسعهم، هذا بينما نجد أن أقوى الثقافات الأخرى لا تكاد تعرف شيئاً مذكوراً عن كمالات الله سبحانه، ولا يسعها إلا أن تركع خاشعة أمام تعبير واحد من تعبيراته ﷺ عن عظمة الله تعالى وجلاله وكماله.

وصحح ﷺ عقيدة الناس في الملائكة، وفي النبوات وعرفهم معنى النبوة ومقاصدها حتى لا يلتبس عليهم أمر عقيدتهم، فيتبعوا كل زائغ ضال، وكاهن وراجم بالغيب او شيطان مريد، وكان البشر قد أخضعوا العقل للتقاليد والخرافات والكهانة حتى ألغوه من وجودهم.

فحرر ﷺ العقل وأطلقه من عقاله إطلاقا يعود على الإنسانية بكل خير ودفعه دفعاً ليتفكر في الكون ليسمو الجانب الروحي، وفي تسخير الأشياء للانسان لا الإنسان للأشياء ليرتقي الجانب المادي.

لقد حرر ﷺ الإنسانية من ظلم البشرية وتناقضاتها ووحد القوى الإنسانية وأهدافها، ووضع أصول الخير التي تقود العالمين إلى السعادة القصوى، وأن العالمين لو أرادوا أن يحصوا الكمالات التي جاء بها خاتم النبيين ﷺ لعجزوا ولو كتبوا في ذلك مدى الدهر.

وكان ﷺ رحمة لمن عرفه ولمن لم يعرفه أما بالنسبة للأولين فمعروف، وأما بالنسبة للآخرين فنقول: إن الحضارات الأخرى قد أستأنفت سيرها في سبيل

الإهتداء إلى الحقيقة على أضواء ما قيمته من الشريعة المحمدية الخالدة.

وليس مجرد الصدفة هو الذي وقت النهضة الأوربية بعد البعثة المحمدية بستة قرون، بل كان ذلك نتيجة لمقدمات أتصل خلالها الأوربيون بالإسلام: سواء في الأندلس أم في حروبهم الصليبية

الإسلام هو المثل الأعلى للإنسانية

لم يكن من قبيل الصدفة أو الإتفاق أن يختم الله الديانات السماوية بالإسلام، وأن يجعل نبي الإسلام صلوات الله عليه وسلامه آخر لبنة في بيت النبوة العتيد، فيتم بها بناؤه ويكمل رواؤه.

بل إن ذلك أمر أقضته طبيعة الإسلام نفسه فهو دين لم ينزل لإصلاح مؤقت أو لهداية أمة مخصوصة من الناس حتى يكون بقاؤه رهناً بهذا العصر من الزمان أو هذه الأمة من البشر، وإنما هو دين من بلغ العموم والإطلاق الدرجة التي جعلته فوق اعتبارات الزمان والمكان جميعاً، فالإسلام هو النظام الإلهي الكامل الذي لايمكن للإنسانية في سعيها المتصل لبلوغ الكمال الإنساني أن تجد أرقى منه أو ما يدانيه في جميع مجالات الرقي عقلياً كان أم نفسياً خلقياً كان أم عاطفياً روحياً كان أم مادياً فردياً كان أم اجتماعياً.

وحينئذ فلا يكون هناك مجال لرسالة إلهية أخرى، أو لرسول جديد فإنه لن يستطيع أن يضيف إلى كمال الإسلام كمالات أخرى لم يأت بها الإسلام بل كل كمال إنساني ممكن فقد جاء به الإسلام ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال ـ وقد رأى بيد عمر رضي الله عنه صحيفة من التوراة يقرأ فيها (لقد جئتكم بها بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. والذي نفسي بيده لو كان موسى ابن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعي).

ولا يظنن أحد أننا نقول ذلك تعصباً منا لديننا أو حمية له بل إن ذلك هو الحق الذي شهدت له به الأعداء الذين لم يستطيعوا رغم كيدهم للإسلام وأفتنانهم في النيل منه أن ينقضوا جزئية واحدة مما قرره ودعا إليه.

وإليك أيها القاريء الكريم بعض الأسس والمبادي التي قامت عليها دعوة الإسلام، وسترى إن تأملتها جيداً صدق ما قدمناه لك من روح العموم والإطلاق التي تسود المنهج الإسلامي كله، وستدرك أيضاً إذا سلم عقلك من الهوى والتعصب أن النظام الذي يقوم على مثل هذه الأسس والمبادىء لا بد أن يكون أرقى نموذج للحياة البشرية و أعلى مثل يمكن أن يبلغه التطور البشري في سعيه الدائب نحو الكمال.

العقيدة الإسلامية

لا شك أن سلامة العقيدة ووضوحها وبعدها عن إغراق الوهم وجموح الخيال وتحكم الأهواء هو الهدف الأكبر الذي يسعى إليه العقل في تفكيره الدائب للوصول إلى الحقيقة.

والعقيدة التي جاء بها الإسلام في قوتها وبساطتها وسلامتها من الشطط والإنحراف وارتكازها على أسس ثابتة من الفطرة الإنسانية العامة والمنطق العقلي المستقيم والنصوص الدينية الصريحة بحيث لا يمكن لعقول كل المفكرين والفلاسفة أن ينقضوا أصلاً واحداً من أصولها.

فهي عقيدة تقوم أولاً وأساساً على الإيمان بالله رباً واحداً له الربوبية المطلقة على الأشياء كلها خلقاً وملكاً وتدبيراً ورعاية وحفظاً لا شركة لأحد معه أصلاً لا في خلق شيء، ولا في تدبير أمر كما قال سبحانه من سورة الأعراف: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله ورب العالمين﴾[1] وأن خلقه للأشياء تم بقدرته وحدها على وفق علمه ومشيئته دون معين أو وسيط وأن تدبيره لها كذلك يجري وفق قوانين ثابتة وسنن مطردة اقتضتها حكمته فلا يستطيع أحد لها تحويلاً ولا تبديلاً وأنه خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وجعله سيد هذه الكائنات بما منحه من سلطان العقل وقوة الفكرهن سعة الحيلة والقدرة على إكتشاف المجهول

(١) سورة الأعراف الآية ٥٤.

وجعل الأشياء كلها مسخرة له وطوع إرادته يستخدمها فيما يعود على أفراده بالخير وييسر لهم سبل العيش، ويعرج بهم في مدارج الرقي والكمال.

وتقوم على الإيمان به كذلك إلهاً واحداً لا تنبغي الإلهية إلاَّ له فهو الإله المألوه الذي تألهه القلوب، يعني تعبده محبة ومخافة وذلاً، وإنابة واستكانة، وخضوعاً وتعظيماً، ورجاء وخشية، وتوكلاً وإستعانة ورغبة ورهبة وذكراً وشكراً ورضى وصبراً وسؤالاً ودعاء وقنوتاً وطاعة إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي يحبها ويرضاها، والتي أمر عباده أن يتقربوا إليه بها كما ذكرنا ذلك بالتفصيل في أول الكتاب.

وعلى الإيمان بأن له وحده الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأنه متصف بجميع الكمالات التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسوله ﷺ إتصافاً حقيقياً على الوجه الذي يليق به من غير أن يقتضي ذلك تمثيلاً له بأحد من خلقه فإنه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1] مع وجوب تنزيهه سبحانه عن كل مالا يليق به من صفات النقص التي تضاد كماله. وعن الشريك والصاحبة والولد والند والضد والشبيه والنظير إلخ.

وتقوم أيضاً على الإيمان بملائكة اللّه على الوجه الذي ورد في الكتاب والسنة من أنهم ﴿عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن أرتضى وهم من خشيته مشفقون﴾[2] وأنهم لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون وأن منهم السفراء بينه وبين رسله من البشر يحملون إليهم وحي اللّه ورسالاته ليقوموا بتبليغها إلى من أرسلوا إليهم من الناس ومنهم من وكل بالأرزاق والأمطار.

ومنهم من وكل بالنطف التي تصب في الأرحام. ومنهم من وكل بقبض الأرواح من الأجساد، ومنهم من وكل بكتابة أعمال العباد من الحسنات

---

(١) سورة الشورى الآية ١١. (٢) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

والسيئات إلخ ما جاءت به النصوص في شأن هذا العالم الغيبي الذي لا يحيل العقل وجوده وإن كان لا يستطيع إثباته. وهكذا كل ما أخبر به الدين من عوالم الغيب، كالجن والشياطين، والجنة والنار وسؤال القبر ونعيم القبر أو عذابه ما دام قد جاء الخبر الصادق بوجودها بعد أن قام الدليل على صدق المخبر بها فليس للعقل بعد ذلك مجال لإنكار أو تكذيب.

وتقوم على الإيمان باليوم الآخر، وما يشتمل عليه من خراب هذه الدنيا وفساد نظامها، وخروج الناس من قبورهم أحياء وحشرهم إلى ربهم، وفصل القضاء بينهم، ومحاسبتهم على كل ما قدموا لأنفسهم، وما كسبته أيديهم من خير ومن شر ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [1].

ولا شك أن الإيمان بالبعث والجزاء مما يقتضيه العقل تحقيقاً لقاعدة العدل. إذ ليس في المعقول ولا في الحكمة أن تكون هذه الحياة القصيرة هي الغاية من خلق هذا العالم الكبير وأن تكون نهاية المؤمن والكافر سواء، ونهاية الظالم والمظلوم سواء، ونهاية البر والفاجر سواء.

قال تعالى من سورة ص ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ [2].

وقال سبحانه من سورة الجاثية ﴿أم حسب الذين أجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ [3].

والإيمان بالبعث هو أيضاً ضرورة يقتضيها نظام العيش في هذه الحياة

---

(١) سورة الزلزلة الآية ٧ ـ ٨.

(٢) سورة ص الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١.

وإستقامة الأمور فيها، فإنه إذا علم كل إنسان أنه مسئول عما قدم، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى، سلك في حياته سبيل الجادة وحاسب نفسه بنفسه، فلا يمكن أن يصدر عنه ظلم لأحد، ولا أن يصر على ذنب ارتكبه، ولا أن يقصر في أداء ما وجب عليه.

وتقوم عقيدة الإسلام أيضاً على الإيمان بقضاء الله وقدره إيماناً يحمل إلى النفوس الطمأنينة والرضى وينفي عنها الهلع والجزع ويحملها على التسليم لله فيما قدره والإعتراف له بقهر الربوبية لكن من غير أن يتخذ هذا الإيمان بالقدر مطية للعجز والكسل،أو تكأة للتقصير والعصيان أو حجة يتعلل بها أهل الكذب والبهتان فإن القدر إنما يتعزى به عن المصائب والآلام، ولكنه ليس حجة لأهل الفسوق والإجرام، بل هؤلاء عليهم أن يتوبوا ويستغفروا الله لذنوبهم بدلاً من التعلق بالأماني ولأحلام.

وتقوم كذلك على أن الدين كله لله فهو الذي يتعبد عباده بما يشاء ويشرع لهم من الأحكام والحدود والفرائض والآداب ما اقتضته حكمته مما يعلم أن فيه صلاحهم وسعادتهم، فلا يجوز لأحد أن يزيد في دين الله ما ليس منه أو ينقص منه ما هو منه أو يبدل كلماته عن مواضعها أو يحرفها بتأويل زائغ أو يشرع ما لم يأذن به الله.

وتقوم أخيراً على أن دين الله واحد وهو الإسلام الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه وأن الأنبياء كلهم أخوة أبناء علات، أصول دينهم واحدة وشرائعهم شتى، وأن الواجب هو الإيمان بهم وبما أنزل إليهم جميعاً، قال تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ (١).

وقال سبحانه من سورة الشورى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[1].

هذا هو مجمل العقيدة الإسلامية فهل ترى فيها ما يجافي الفطرة أو يكابر العقل أو يتعاصى على الفهم أو يتنافى مع مقررات العلم؟ كلا بل هي في صراحتها وبساطتها وقوتها يجب أن تكون عقيدة الإنسانية كلها إذا أرادت أن تنجو مما تعانيه من فساد العقائد وجور الوثنية وبوائق الإلحاد.

جهاد الرسول ﷺ في التوحيد

صح عنه ﷺ أنه قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله).

وصح عنه أيضاً أنه قال (بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم حشر معهم) وليس معنى هذا أن الإسلام انتشر بالسيف كما يتهمه بذلك أعداؤه فإن الله تعالى يقول ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[2] ولكن أعداء الإسلام المحيطين به من كل جانب كانوا يتربصون به الدوائر ويشنون عليه الغارة بعد الغارة ويجمعون له المرة بعد المرة فاقتضى واجب الدفاع عن الدعوة وتأمين سبيلها الإذن للمسلمين بالجهاد الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوات وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[3].

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣. (٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦. (٣) سورة الحج الآيات ٣٩ - ٤١

وقد دلت التجارب الكثيرة أن الحق لا يمكن أن يقوم في أرض الله بدون قوة تسنده وتحميه وتدفع عنه عدوان الباطل وتؤمن له الطريق حتى يصل إلى الأسماع والقلوب دون عنف أو إكراه.

ولعله لم يبل أحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام في سبيل التوحيد ويبلغ الغاية القصوى في تقريره والدعوة إليه ويجاهد في ذلك بكل ممكن كما فعل نبي الإسلام صلوات الله عليه وسلامه ولا غرو فهو الذي أختارته العناية الإلهية لحمل أعظم رسالة، رسالة الكمال والتمام التي جاءت بالصور النهائية الكاملة لدين الله وتوحيده بعد أن شوهها أهل الأديان وجعلوها مزقاً وخرقوا سياجها بما أحدثوا في أديانهم من ألوان الشرك والإبتداع وأن المتأمل في سيرته ﷺ بعد البعثة ليجدها سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد الدائب لإعلاء كلمة التوحيد وتقويض دعائم الشرك ومحاربة الوثنية في كل صورها ومظاهرها، فقد قضى بمكة ثلاثة عشر عاماً من سني بعثته لا شغل له إلا إقرار العقائد الصحيحة والدعوة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، ولم ينزل عليه فيها تشريع عملي واحد إلا الصلاة.

ولقد قامت قريش حين جدت به الدعوة تريد أن تحول بينه وبين الإستمرار في ذلك. فهددت وتوعدت، وأرغت وأزبدت ثم تجاوزت نطاق التهديد بالكلام إلى الفعل؛ فافتنت في أيذائه وإيذاء أصحابه القليلين. وبلغت في ذلك ما شاءه لها الجهل والحمية لدين الآباء والخوف على مركز الرياسة الذي كانت تتمتع به في العرب. ولكن ذلك كله رغم عنفه وقسوته لم يزد هذه الفئة المؤمنة التي ذاقت حلاوة التوحيد إلا استمساكاً بدينها وصلابة في إيمانها.

والقرآن في أثناء ذلك ينزل بالقوارع يزلزل بها قلوب أهل الكفر والعناد، ويأخذهم بأشد الوعيد، ويوبخهم على ما رضوا لأنفسهم من عبادة ما هو أحقر منهم شأناً وأضعف كيداً، وينعي عليهم تقليدهم لآبائهم في الجهل والضلال، ويدعوهم إلى النظر الحر والتفكير السليم، ولكن القوم مع ذلك ركبوا رؤوسهم؛

وتمادوا في عتوهم واشتطوا غاية الشطط في تعذيب المؤمنين وإيذائهم حتى اضطروهم أن يهاجروا إلى الحبشة مرتين.

كل ذلك والرسول ﷺ مثابر على دعوته ماض فيها بأمر ربه صابر محتمل لما يلقي هو وأصحابه من الأذى في سبيله لا يثنيه عن دعوته إغراء ولا يلويه تهديد.

ثم بلغت بالقوم السفاهة والعقوق وقطيعة الرحم أن تعاقدوا على مقاطعة بني هاشم لايبيعونهم ولا يبتاعون منهم، ولا ينكحونهم ولا ينكحون إليهم، وحاصروهم في سعب أبي طالب ثلاث سنين ذاقوا فيها من أهوال الجوع والحرمان مالا تصبر عليه شم الجبال.

ثم كان خروجه عليه السلام إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإيمان به ونصرته حتى يبلغ رسالة ربه فلم يجد منهم إلا أقبح الرد وأغلظ الجواب، بل بلغ بهم اللؤم أن أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يقفون له في طريق عودته يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، وحتى اضطروه أن يستند إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وكانا من أشد الناس عداوة له ولكنهما رقا له حين وجدا ما به من آثار الجهد والألم وبعثا إليه بقطف من العنب ولم يزد ﷺ في غمرة هذا الكرب إلا أن يتوجه إلى الله بهذا الدعاء الذي يفيض رضى عن الله عز وجل فيقول:

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى قريب يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » ولم يستطع حينئذ أن يدخل مكة إلا في جوار رجل من المشركين وهو (المطعم بن عدي).

ثم أخذ يعرض نفسه على قبائل العرب في موسم الحج فلا يصادف من

أكثرهم إلا سخرية واستهزاء، وأبو لهب عمه يمشي بين يديه يحذر الناس من الإستماع إليه، ويقول لهم إنه ساحر يفرق بين الأخ وأخيه، وبين المرء وزوجه، فلا يملك الناس إلا أن يقولوا: أنت أعلم بابن أخيك.

ثم كان أن أذن الله بالفرج وهدى بعض أهل يثرب إلى الإسلام وأمر المسلمون بالهجرة إليها وما اكتنف هذا الحادث من أهوال ومخاطر حيث ائتمر القوم برسول الله ﷺ وأجمعوا على قتله. ووقف على بابه ليلة الهجرة أربعون سيفاً تتجرق شوقاً أن تروى من دمه الزكي، فيتفرق دمه في القبائل.

ولما أوى إلى الغار هو وصاحبه الصديق وخرج القوم في طلبهم وأنتهى بهم الطلب إلى باب الغار، ارتجف لذلك أبو بكر وقال: والله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدمه لأبصرنا. فينظر إليه الرسول بعين ممتلئة بالاطمئنان والثقة بنصر الله ويقول له مهدئاً روعه: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾.

وأخيراً انتهيا إلى المدينة حيث كان في انتظارهما عسكر التوحيد وجند الإيمان من المهاجرين والأنصار.

ثم لم يلبث أن أذن الله للمسلمين في الجهاد دفاعاً عن أنفسهم وانتقاماً ممن ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم وإنقاذاً لمن بقي في مكة من ضعفاء المسلمين. وبدأ الصراع الفعلي والحرب الساخنة بين التوحيد والشرك، وكانت وقائع في بدر واحد والأحزاب عدا حرب اليهود في المدينة حتى أدال الله لنبيه من قريش وفتح عليه مكة ونصره نصراً عزيزاً بعد هذا البلاء الطويل والصبر الجميل:

ثم كانت غزوات أخرى بعد الفتح لإخضاع عرب الجزيرة حتى لا يبقى فيها إلا صوت واحد، هو صوت الإسلام.

وكانت آخر هذه الغزوات تلك الغزوة التي سميت بغزوة تبوك على مشارف الشام، وكانت في وقت شدة وعسرة، وكانت في العام التاسع من الهجرة.

وهكذا كانت حياته كلها ﷺ جهاداً دائباً لا يفتر ولا يني حتى جاءه نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهكذا بلغ الرسول صلوات الله وسلامه عليه من السمو في الدعوة والجهاد الغاية التي تتضاءل دونها كل همة، وتتضامن عندها جميع الرقاب.

نشوء الخلاف

بعد وفاته ﷺ

توفي رسول الله ﷺ راضيا مرضيا بعد أن بلغ رسالة ربه كأتم ما يكون التبليغ، وأدى الأمانة كأحسن ما يكون الأداء وترك أمته على المحجة البيضاء، ونزل عليه وهو بعرفة في حجة الوداع: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [1].

وقد سار أصحابه من بعده على نهجه واقتفوا أثره ووقفوا عند حدود الكتاب والسنة، فكانوا في عقيدتهم على رأي واحد وهو الإيمان بكل ما تضمنته النصوص من غير لجوء إلى التأويل ولا نزوع إلى التشبيه أو التعطيل.

ولكن شاء الله أن يجري على هذه الأمة من الخلاف في أصول دينها ما جرى على الأمم من قبلها مصداق قوله ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه).

وقوله في الحديث الآخر «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، وهي ما أنا عليه اليوم وأصحابي - وفي رواية: وهي الجماعة - وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه مفصل ولا عرق إلا دخله».

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

وكان النزاع السياسي بين علي ومعاوية رضي الله عنهما حول الخلافة قد أسفر عن وجود فرقتين كبيرتين من أهل الابتداع والضلالة.

أولاهما فرقة الخوارج الذين كانوا في الأصل في جيش علي رضي الله عنه، ثم انشقوا عنه بعد حادثة التحكيم المشهورة وما لبثوا أن كونوا لأنفسهم رأيا خاصا في بعض المسائل الدينية فذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار، وبناء على هذا الأصل كفروا علياً ومعاوية ومن كان بعسكرهما من الصحابة، واستحلوا دماء من خالفهم من المسلمين وسبي ذراريهم ونسائهم وذهبوا إلى أن الخلافة لا يشترط لها أن يكون الخليفة قرشيا، واجتمعوا في كل زمان على واحد منهم بشرط أن يبقى على مقتضى اعتقادهم؛ ويجري على سنن العدل في معاملاتهم وإلا خذلوه وخلعوه، وربما قتلوه.

وأما الفرقة الثانية فهم الشيعة الذي غلوا في علي رضي الله عنه حتى زعموا أن النبي ﷺ نص على إمامته وكان زعيم هذه الفتنة رجلا يقال لها عبد الله بن سبا وكان يهودياً وأظهر الإسلام ليتمكن من إفساده على أهله كما فعل ذلك بعض اليهود في المسيحية، واتخذ من شخصية علي مادة لفتنته فزعم أن الله حل فيه وتبعه على ذلك جماعة فاضطر على أن يحرقهم بالنار، ويروى أنه أنشد في ذلك:.

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد اتسعت هذه الفتنة فيما بعد وتولد منها كثير من الشر الذي عانى منه الإسلام وأهله، ولا يزالون يعانون من خبث هؤلاء الشيعة وفتنهم.

بدعة القدرية

ظهرت هذه البدعة في آخر أيام الصحابة رضي الله عنهم قام بها (معبد الجهن) و (غيلان الدمشقي) وتبعهما عليها واصل بن عطاء رئيس المعتزلة. وكان يقول في تقرير هذه البدعة فيم حكاه الشهرستاني عنه (إن الباري تعالى حكيم

عادل لا يجوز أن يضاف إليه شر ولا ظلم ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه.

فالعبد هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو المجازي على فعله والرب تعالى أقدره على ذلك كله وأفعال العباد محصورة في الحركات والسكنات والاعتمادات والنظر والعلم، قال ويستحيل أن يخاطب العبد (بأفعل) وهو لا يمكنه أن يفعل ولا هو يحس من نفسه الاقتدار والفعل، ومن أنكره فقد أنكر الضرورة).

وقد اتسعت هذه البدعة حتى شغلت أذهان كثير من الناس وحتى أشفق منها من كان موجودا في ذلك العصر من الصحابة كابن عباس وابن عمر وغيرهما، فأخذوا يروون للناس ما عندهم من أحاديث القدر.

ومن العجيب أن بعض كبار التابعين قد حاك في صدره من هذه البدعة بل قيل إن الحسن البصري رحمه الله وهو من ساداتهم كان يرى رأي هؤلاء القدرية.

يقول الشهرستاني (ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى (عبد الملك ابن مروان) وقد سأله عن القول بالقدر والجبر فأجابه بما يوافق مذهب القدرية واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل).

ولكن الشهرستاني يستدرك على ذلك بقوله (ولعلها لواصل ابن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله تعالى فإن هذه الكلمات كالجمع عليها عندهم).

وهذا الذي نميل إليه فإنه لا يظن بالحسن أن يذهب مذهب هؤلاء في إنكار القدر السابق والقول بأن الله لم يقدر على العبد طاعة ولا معصية ولا علم بوقوع ذلك منه ولا اراده منه، ولعل الذي كان يقوله الحسن رحمه الله هو إثبات نوع من الاختيار للعبد بمعنى أنه ليس مجبورا على الفعل بحيث لا يقدر على الترك

وقد دفع هذه التهمة عن الحسن كثير من أئمة أهل السنة، روى أبو داود عن حميد الطويل قال (قدم علينا الحسن مكة فكلمني فقهاء أهل مكة أن أكلمه في أن يجلس لهم يوما يعظهم فيه، فقال نعم فاجتمعوا فخطبهم فما رأيت أخطب منهم، فقال رجل يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال سبحان الله هل من خالق غير الله؟ خلق الله الشيطان وخلق الخير وخلق الشر قال الرجل قاتلهم الله كيف يكذبون على هذا الشيخ؟) وروى مثل هذا أيضاً عن ابن عون وحماد بن زيد وأيوب السختياني رحمهم الله.

وكانت هذه البدعة (بدعة القدرية) أول سهم يوجه إلى كبد التوحيد فإنها تجعل للعبد استقلالا يخلق فعله لذلك ورد في بعض الأحاديث (أن القدرية مجوس هذه الأمة إذ مرضوا فلا تعودوهم وإذا ماتوا فلا تشهدوهم) وهو حديث ضعيف.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال (القدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده).

وقد روى عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (ما هلكت أمة قط إلا بالشرك بالله عز وجل وما أشركت قط إلا كان بدء إشراكها التكذيب بالقدر) وفي إسناده ضعف.

المرجئة

يقول الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل):

الإرجاء على معنيين أحدهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ [1] أي أمهله وأخره والثاني إعطاء الرجاء.

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١١١.

يؤخرون العمل على النية والعقد وأما بالمعنى الثاني فظاهر فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضي عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة، أو من أهل النار، فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان، ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى الأخير صحيح، فإن مذهب أهل السنة أن صاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب منها فأمره إلى الله إن شاء غفرها له وإن شاء عذبه بها لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1].

وأما الإرجاء بالمعنى الأول وهو تأخير الأعمال عن الإيمان واعتقاد أن الإيمان قول ومعرفة، فهذا هو الذي ذمه السلف رحمهم الله وحذروا الناس من مقالة أصحابه، وقد روي الآجري في كتابه (الشريعة) عن حذيفة بن النمام رضي الله عنه أنه قال:

(إني لأعلم أهل دينين هذين الدينين في الدار قوم يقولون الإيمان كلام، وقوم يقولون ما بال الصلوات الخمس؟ وإنما هما صلاتان).

وقد روي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: (مثل المرجئة مثل الصابئين) وأنه حذر أيوب السختياني من مجالسة (طلق) لأنه مرجيء. وروي عن وكيع أنه كان يقول: (أهل السنة يقولون الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون الإيمان قول، والجهمية يقولون الإيمان المعرفة).

وقال محمد بن الحسين الآجري: (من قال الإيمان قول دون العمل يقال له رددت القرآن والسنة وما عليه جميع العلماء وخرجت من قول المسلمين وكفرت بالله العظيم).

فإن قال بماذا؟ قيل له إن: الله عز وجل أمر المؤمنين بعد أن صدقوا في

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨.

إيمانهم أمرهم بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وفرائض كثيرة يطول ذكرها مع شدة خوفهم على التفريط فيها العقوبة الشديدة، فمن زعم أن الله تعالى فرض على المؤمنين ذكرها ولم يرد منهم العلم ورضى منهم بالقول، فقد خالف الله عز وجل ورسوله ﷺ، فإن الله عز وجل لما تكامل أمر الإسلام بالأعمال قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (1).

وقال النبي ﷺ (بنى الإسلام على خمس) وقال ﷺ (من ترك الصلاة فقد كفر) ومن قال الإيمان المعرفة دون القول والعمل، فقد أتى بأعظم من مقالة من قال الإيمان قول. ولزمه أن يكون إبليس على قوله مؤمناً، لأن ابليس قد عرف ربه: ﴿قال رب بما أغويتني﴾ (2) وقال ﴿رب فانظرني﴾ (3) ويلزم أن تكون اليهود - لمعرفتهم بالله وبرسوله - أن يكونوا مؤمنين. قال الله عز وجل ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ (4) فقد أخبر عز وجل أنهم يعرفون الله تعالى ورسوله إلى أن يقول بل نقول - والحمد لله - قولا يوافق الكتاب والسنة وعلماء المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم، وقد تقدم ذكرنا لهم أن الإيمان معرفة بالقلب تصديقاً يقيناً وقول باللسان وعمل بالجوارح لا يكون مؤمناً إلا بهذه الثلاثة لا يجزيء بعضها عن بعض والحمد الله على ذلك.

وإنما أطلنا الكلام في هذه المقالة لأنها خرق شديد لسياج التوحيد، فإن الأعمال من حقوق التوحيد ومكملاته فإهمالها نقص في التوحيد، وقد سمي الله تركها شركاً وكفراً.

قال تعالى من سورة الروم ﴿وأقيمواالصلوات ولا تكونوامن المشركين﴾ (5) وقال من سورة حم فصلت ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ (6).

وقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ

---

(1) سورة المائدة الآية ٣.
(2) سورة الحجر الآية ٣٩.
(3) سورة الحجر الآية ٣٦.
(4) سورة البقرة الآية ١٤٦.
(5) سورة الروم الآية ٣١.
(6) سورة فصلت الآيتان ٦ - ٧.

« صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية ، وهو ضعيف .

الجهمية

هم أصحاب (جهم بن صفوان) ظهرت بدعته (بترمذ) وقتله « سالم بن أحوز المازني » - بمرو - في آخر زمن بني أمية ، وقد غلا في التعطيل حتى نفى الأسماء والصفات جميعاً ، وقال لا يجوز أن يوصف الباري بصفة يوصف بها خلقه ، فلا يسميه حياً ولا عالماً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا متكلماً ، لأن ذلك في زعمه يقتضي التشبيه ، ولم يثبت له سبحانه إلا كونه قادراً فاعلاً خالقاً ، لأن المخلوق عنده لا يوصف بشيء من ذلك .

وقد استعظم السلف مقالة الجهم وعدوها كفراً شنيعاً ، حتى روى عن بعضهم أنه كان يقول« إنا لنحكى كلام اليهود والنصارى ولا نحكي كلام الجهمية » .

وقد صنفوا كتباً كثيرة في الرد على هؤلاء الجهمية ، ولفظ الجهمية عندهم كان يتناول كل فرق المعطلة من جهمية وفلاسفة وأشعرية ومعتزلة .

وقد جمع هذا الخبيث بين الشناعات الثلاث : التعطيل والجبر والارجاء أما التعطيل فقد ذكرناه وأما الجبر فإنه كان يقول إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالإستطاعة ، وإنما هومجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ؛ وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات . والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال كلها جبر والتكليف أيضاً جبر .

وأما الإرجاء فقد كان يرى أن الإيمان هو المعرفة ، فمن أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده ، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد فهو مؤمن ، والإيمان عنده لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، فإيمان الأنبياء وآحاد أمتهم على نمط واحد ؛ إذ المعارف لا تتفاضل والمعارف واجبة قبل ورود السمع .

وهكذا صار الجهم بهذه الضلالات الثلاث رأس فتنة كبرى لمن جاءوا بعده

من فرق الزيغ والضلال الذين جروا في مضماره وتعلقوا بأذياله؛ وكانت حماقاته هذه كفيلة أن تكسر منجنيق التوحيد لولا قيام السلف رحمهم الله بدحض مفترياته والذب عن حمي الدين القويم.

المعتزلة

فرقة من علماء الكلام تنتسب إلى رجل يقال له (واصل بن عطاء الغزال) كان للحسن البصري يقرأ عليه العلوم والأخبار، ثم اعتزله لسبب ما وعمل له حلقة بالمسجد يقرر فيها آراءه. فسمي هو وأصحابه بالمعتزله، وكان من أشهر تلاميذه رجل يقال له (عمرو بن عبيد).

وقد أشتهر المعتزلة بالغلو في تقديس العقل واعتباره المصدر الأول للإعتقاد، وهم لا يترددون في تأويل ما يرونه من النصوص متعارضاً مع حكم العقل، لأن حكم العقل قطعي في زعمهم، وأما النصوص فدلالاتها ظنية.

والمعتزلة كلهم ـ على تعدد فرقهم ومدارسهم ـ متفقون على خمس مبادىء أساسية لا يكون معتزلياً عندهم إلا من أخذ بها وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين. والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والذي يعنينا هنا من هذه المبادىء هو المبدأ الأول وهو التوحيد فإن هؤلاء المعتزلة قد فهموا التوحيد بأنه وحدة الذات، بأن لا يكون لها صفات قديمة زائدة عليها، وعللوا ذلك بأن أخص صفات الألوهية هو القدم فلو كان للذات صفات قديمة معها للزم أن تكون آلهة فيتعدد الإله.

وإذا كان الله عز وجل قد كفر النصارى لقولهم بآلهة ثلاثة فكيف بمن أثبت سبعة أو ثمانية أو أكثر؟

وهكذا عطل المعتزلة الذات عن صفاتها بهذه الشبهة الواهية، وكان منشأ غلطهم هو قولهم إن أخص صفات الألوهية هو القدم ولو سلم فإن الصفات لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم بالذات وقدمها نابع لقدم الذات، فلا يلزم من قدمها

تعدد الآلهة والنصارى إنما كفروا لإثباتهم ثلاثة آلهة مستقلة منفصلاً بعضها عن بعض. ولكنا نقول إن الله بجميع صفاته إله واحد، فلا غيرية في الوجود بين الذات والصفات.

الفلاسفة

هم فرقة نظرت في كتب فلاسفة اليونان كارسطو وأفلاطون وأفلوطين الإسكندري فآمنوا بما فيها من خزعبلات ظنا منهم أن هؤلاء الفلاسفة لا يخطئون لأنهم يجرون في بحثهم على مقتضى البرهان، ثم حاولوا عبثاً وتزلفاً إلى المسلمين وسترا لزندقتهم أن يوفقوا بين هذه الفلسفة، وبين عقائد الدين، فأخذوا يتلاعبون بالنصوص يريدون تأويلها بما يوافق فلسفتهم العفنة فضلوا ضلالاً بعيداً، وقد انبرى كثير من العلماء للرد عليهم، والكشف عن تلبيساتهم لا سيما الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) وشيخ الإسلام (ابن تيمية) في (منهاج السنة) و (الموافقة بين المعقول والمنقول).

والفلسفة الإلهية لهؤلاء تقوم على أن أخص خصائص الألوهية هو وجوب الوجود بالذات، ولهذا يهتمون بإثبات أن لا واجب وجود إلا الله وواجب الوجود عندهم لا بد أن يكون واحداً بسيطاً لا تكثر فيه لاذهناً ولا خارجاً ولهذا نفوا كالمعتزلة جميع الصفات الوجودية ولم يثبتوا إلا سلوباً وإضافات. بل إن كلامهم في هذا الباب ينتهي كما يقول ابن تيمية رحمه الله ـ إلى إثبات وجود مطلق لا تعين فيه ومعلوم أن الوجود المطلق لا وجود له في الأعيان، بل في الأذهان ومعنى هذا أن كلامهم يؤول إلى نفي وجود الواجب وجعله أمراً تقديرياً صرفاً.

وهكذا أفسد هؤلاء الفلاسفة كأخواتهم المعتزلة معنى التوحيد وحصروه في مدلولات اصطلاحية بعيدة عما يفهم من نصوص الدين.

وهم من جهة أخرى لا يقرون بتوحيد الربوبية الذي كان يقربه المشركون

فإن اللّه عندهم ليس خالقاً للعالم ولا مدبراً له بل ولا يعلم ما يجري فيه من حركات وأحداث، وإنما ينسبون الخلق والتدبير إلى ما يسمونه (العقل الفعال) أو عقل القمر، فأثبتوا واسطة في الخلق، كالتي أثبتها المسيحيون، والصابئة والديانات الشركية الوثنية.

الأشعرية

هم أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ هو الذي كان تلميذاً لأبي علي الجبائي رئيس معتزلة البصرة ثم خالفه وأعلن براءته من مذهب الإعتزال.

والمعروف عن هؤلاء الأشاعرة أنهم يثبتون للّه سبع صفات يسمونها صفات المعاني وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام.

وهي عندهم صفات أزلية قائمة بذاته تعالى زائدة عليها.

وأما ما وراء ذلك من الصفات الخبرية التي وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، كالوجه واليد، والعين والإستواء والنزول والمجيء والإتيان والغضب، والرضى والمحبة والكراهية ونحوها فكان أبو الحسن وتلامذته كأبي بكر الباقلاني وابن مجاهد يثبتونها كما يدل على ذلك مابأيدينا من كتبهم التي لا شك في نسبتها إليهم.

بل إن أبا الحسن يؤكد دائماً أنه على مذهب الإمام الفاضل والرئيس الكامل، ناصر السنة، وقامع البدعة، وأحمد بن حنبل الشيباني رحمه الله.

والمعروف أن من اشتغل بتأويلها من الأشاعرة هو (ابن فورك) في كتابه (التأويلات) ثم تبعه على ذلك متأخرو الأشعرية كإمام الحرمين والغزالي والرازي والحليمي والآمدي وابن عقيل وابن الجوزي وغيرهم، وقد ضل في هذا الباب كثير من فضلاء الأشاعرة الذين كان لهم قدم راسخة في العلم والعبادة وحفظ السنة كالنووي والعز بن عبد السلام وغيرهما.

ومن العجيب أن هؤلاء الأشاعرة يرون أن أخص خصائص الألوهية هو الإنفراد بالخلق والإختراع ولهذا اهتموا في كتبهم بإقامة البراهين على ذلك كالذي يسمونه ببرهان (التمانع) ومعلوم أن الإنفراد بالخلق هو توحيد الربوبية الذي كان يقر به المشركون أما التوحيد الأهم والأعظم وهو توحيد الالهية فإنهم لا يهتمون به ولا يوجد له ذكر في كتبهم، ولعل هذا هو السر في إنخراط كثير منهم في بدع التصوف، وإقرارهم للوسائل الشركية التي ترتكب عند أضرحة المشايخ المقبورين.

الصوفية

هم جماعة زعموا أنهم يريدون سلوك الطريق إلى الله عز وجل ولكنهم بدلاً من أن يسلكوا طريق الكتاب والسنة الذي لا طريق إلى الله غيره راحوا يشرعون لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ويضعون لأنفسهم قواعد للسلوك تقوم على الزهد والحرمان، ورياضة النفس ومجاهدة الشهوات، ولما وجدوا أن المنهج الإسلامي القائم على الإعتدال والتكامل ومحاربة الغلو والتطرف لا يشبع نزعاتهم السلبية الغالبية راحوا يطوفون بالمذاهب والديانات المختلفة ويقمشون منها فأخذوا من البوذية والنصرانية والصابئة والمانوية والغوصية وادعوا لأنفسهم أحوالاً وواردات ومواجد وأذواقاً لا يعرفها الدين. وتكلموا في كل ذلك بما يشبه الألغاز، وما زال الشيطان بهم يصور لهم من الخيالات ما لا حقيقة له حتى أوقعهم في القول بالحلول ووحدة الوجود، وأفضى بهم إلى القول بالجبر وبطلان التكليف والتسوية بين الطاعات والمعاصي والإيمان والكفر بدعوى شهود الربوبية في كل موجود.

وكما غلا الشيعة في تقديس أئمتهم واعتقاد عصمتهم غلا هؤلاء الصوفية في تقديس شيوخهم ووجوب الانقياد لهم في كل ما يأمرون به ولو كان فعل معصية أو تحريم حلال، فاتخذوهم بذلك أرباباً كما اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ونحلوهم من الكرامات في الحياة وبعد الممات ما

ألحقهم بأبطال الأساطير وآلهة الأغريق. بل هم أشد تقديساً لهم بعد موتهم منهم في حياتهم حيث يحجون إلى أضرحتهم يقيمون عندها المهرجانات ويذبحون القرابين ويقدمون النذور، ويطيفون بهذه الأضرحة مستغيثين متضرعين معتقدين أن هؤلاء الموتى أحياء في قبورهم، بل إن الواحد منهم ليكون في بلده ويدعو شيخه حياً أو ميتاً، وبينه وبينه آلاف الأميال، ولا يمكن في مثل هذه العجالة الضيقة الكشف عن كل مخازي هذه الطائفة وفضائحها، و لكني أحيل القارىء على كتاب جد نفيس، وهو كتاب (تلبيس إبليس) لإبن الجوزي. وكذلك كتب زميلنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن الوكيل الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية، فله في هذا الميدان ركضات وجولات نصر الله بها الحق وقمع بها كيد هؤلاء المشعوذين.

خاتمة

وبعد: فلعلي أيها القارىء الكريم قد استطعت في هذه اللمحات الخاطفة أن أقفك على حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وفرضه على جميع خلقه، وجعله حبل النجاة من أخذه وعقابه، وسبباً لكرامته في الدنيا والآخرة، وأن أمر بك سريعاً على الأدوار التي مرت بها دعوة التوحيد منذ أهبط آدم إلى الأرض، وما أبلاه الرسل عليهم الصلاة والسلام في هذه السبيل وما صادفهم فيها من عقبات، وما واجهوه من طغيان أهل الشرك وتكذيبهم، حتى جاءهم نصر الله الذي كتبه لهم كما قال ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾[1].

فاعتصم يا أخي بما ذكرت لك من الحق ولا تستوحش من قلة أهله، فإنه ليس مع الحق وحشة، وخذ به نفسك وأهلك وولدك وادع إليه كل من تعرف، فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها.

والله أسأل أن يثبت قلوبنا على دينه الحق، ويرينا الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، إنه ولي المؤمنين؟

محمد خليل هراس

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢١.

خاتمة

وبعد : فلعلي أيها القارىء الكريم قد استطعت في هذه اللمحات الخاطفة أن أقفك على حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وفرضه على جميع خلقه، وجعله حبل النجاة من أخذه وعقابه، وسبباً لكرامته في الدنيا والآخرة، وأن أمر بك سريعاً على الأدوار التي مرت بها دعوة التوحيد منذ أهبط آدم إلى الأرض، وما أبلاه الرسل عليهم الصلاة والسلام في هذه السبيل وما صادفهم فيها من عقبات، وما واجهوه من طغيان أهل الشرك وتكذيبهم، حتى جاءهم نصر الله الذي كتبه لهم كما قال ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ [1].

فاعتصم يا أخي بما ذكرت لك من الحق ولا تستوحش من قلة أهله، فإنه ليس مع الحق وحشة، وخذ به نفسك وأهلك وولدك وادع إليه كل من تعرف، فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها.

والله أسأل أن يثبت قلوبنا على دينه الحق، ويرينا الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، إنه ولي المؤمنين؟

محمد خليل هراس

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢١.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة